محمود درويش حياته وأعماله الأدبية

دراسة نقدية

بحث جامعي
لنيل شهادة ما قبل الدكتوراة

إعداد وتقديم
ضياء الرحمن

تحت إشراف
الدكتور مجيب الرحمن

مركز الدراسات العربية والأفريقية
مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة
جامعة جواهر لال نهرو
نيو دلهي-١١٠٠٦٧
٢٠٠٧م

जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय
JAWAHARLAL NEHRU UNIVERSITY
Centre of Arabic & African Studies
School of Language, Literature, & Culture Studies
NEW DELHI-110067, INDIA

Dated: 30/07/2007

DECLARATION

I declare that the work done in this dissertation entitled "MAHMOOD DARWISH: HAYATUHU WA A'MALUHU AL ADABIYYAH DIRASAH NAQDIYA (Mahmood Darwish: His Life & Literary Works: A Critical Study)" by me is an original work and has not been previously submitted for any other degree in this or any other University/Institution.

Ziaur Rahman
(Research Scholar)

Dr. Mujeebur Rahman
(SUPERVISOR)
CAAS/SLL&CS/JNU

Prof. F.U. Farooqi
(CHAIRPERSON)
CAAS/SLL&CS/JNU

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمـــا بعـــد، لقد أتاح الله سبحانه وتعالى أن أقوم ببحث علمي في أعمال محمود درويش الأدبية التي وسعت دائرة الاهتمام الثقافي.

قسمت أطروحتي في ثلاثة أبواب وكل منها يتضمن ثلاثة فصول وذلك على النحو التالي.

الباب الأول: محمود درويش: حياته وعصره

الفصل الأول: الأوضاع السياسية والاجتماعية والعلمية

الفصل الثاني: قرية "البروة": تاريخها واهميتها

الفصل الثالث: نبذة عن حياة محمود درويش

الباب الثاني: محمود درويش: حياته وأعماله الأدبية

الفصل الأول: مساهماته في مجال النثر العربي الحديث

الفصل الثاني: مساهماته في الشعر العربي الحديث

الفصل الثالث: ميزاته الشعرية

الباب الثالث: أعمال محمود درويش: دراسة نقدية

الفصل الأول: أعماله في منظور نقدي

الفصل الثاني: مقارنته مع سميح القاسم وتوفيق زياد

الفصل الثالث: مكانته في الشعر العربي الحديث

يـــتحدث الـــباب الأول عـــن الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة في أرض فلسطين والتي قد دفعت درويش إلى القيام بدور جوهري في

المقاومـــة الفلسطينية ضد المخططات الصهيونية الموضوعة في إطار احتلال فلســطين ومقدساتها الإسلامية وكذلك يتناول قريته البروة وتاريخها وأهميتها باعتبار أنها قد أنجبت الأدباء الكبار ورجالات العلمية والشخصيات المرموقة السياسية أمثال محمود درويش، وغسان كنفاني، وسميرة بن عزام وغيرهم.

ويبحــث الــباب الثاني عن مساهمات محمود درويش في مجال النثر العربـــي الحديـــث مشيرا إلى أفكار رئيسية يحملها عديد من المؤلفات النثرية الهامة أمثال ذاكرة للنسيان، عابرون في كلام عابر وشيء عن الوطن.

وإنه لا يكتف بذلك فحسب بل يبحث عن مساهماته الشعرية مع الإشارة إلى أهم دواوينه وقصائده أمثال عصافير بلا أجنحة، وأوراق الزيتون وعاشق مـــن فلســطين وقصـــيدة بيروت وقصيدة مديح الظل العالي، وحالت حصار وسرير الغريبة قصيدة جدارية مشتملة على قصيدة واحدة فقط.

يـــبدو محمود درويش في الفصل الثالث من النفس الباب وحيدا وفريدا فـــي لغـــته ولهجته وأسلوبه بأنه قد وظف الرموز بشكل أفضل وأغنى الشعر العربي الحديث بعطائه الغزير.

يضـــع الباب الثالث والأخير محمود درويش في خريطة الشعر العربي والعالمي مشيرا إلى الإيجابيات والسلبيات الشعرية من أجل إبراز مزاياه الفنية ويصـــفه بأنه في الصف الأول من جيل شعراء المقاومة كما يعتقد عز الدين المناصرة ومحمد دكروب.

كلمة الشكر

باســـمك اللهـــم وأحمدك حمدا معترفا بنعمتك وأذكرك وأشكرك. أصل وأسم على أشرف رسولك وآله وصحبه أجمعين.

وهـــذه محاولة متواضعة للبحث في أعمال محمود درويش الأدبية التي تعالج جميع جوانب القضايا الفلسطينية. ولم أدخر أي جهد في هذا السبيل.

أشـــكر جميع أساتذتي الكرام شكرا جزيلا من أعماق قلبي لتوجيهاتهم وإرشـــاداتهم القـــيمة ومعاونتهم الغالية في إعداد البحث وأشكر بوجه خاص مشرفي الدكتور مجيب الرحمن من صميم قلبي.

ولا يســـعني إلا أن أتقـــدم بالشكر والامتنان إلى موظفي مكتبة جامعة جواهـــر لال نهـــرو ومكتـــبة جامعة الدول العربية بنيو دلهي وأخي الصغير شريف الإسلام لتوفير المواد الغالية والكمبيوتر الشخصي مجاناً.

وأخـــيرا إنني شاكر لصديقي سرفراز احمد خان الذي قدم المساعدات المالية عند التحاقي بنفس الجامعة عام ٢٠٠٣.

نسأل الله عز وجل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه. وبه التوفيق.

الباب الأول

خلفية فلسطين السياسية والاجتماعية والعلمية

من المعروف أن فلسطين دولة محترمة في العالم الإسلامي كله وخاصة في المجتمع العربي بفضل أضرحة ومزارات الأنبياء والمساجد التاريخية وبفضل كونها محطة الأدباء والرجالات العلمية. هي دولة مرت بعدة مراحل في حياتها. فمن جهة، اندلعت في هذه الأرض حروب وثورات وصراعات وألمت بها نكبات ومآس. فمن جهة ثانية، حصلت هناك تطورات هائلة وإنجازات مذهلة في مجال العلم والأدب العربي الحديث وطلعت النجوم الأدبية المتألقة على سمائها.

شهدت فلسطين أياما سيئة للغاية في حياتها بسبب اندلاع شتى الحروب وجراء العمليات الدموية في ثنايا ١٩١٤م، ١٩٢٩، ١٩٣٣-٣٩، ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ و ١٩٨٢. لأنها ختمت على قلب فلسطين ومصيره إلى حد كبير. (١)

عاشت الدولة المحتلة عديدا من الظواهر الثورية والحربية منذ مطلع العقد الثاني من القرن العشرين. نشبت فيه الحرب العالمية الأولى الآنية بتصريح بلفور بريطاني. وفي هذا الخصوص، نقل يوسف حداد كاتب مختص بالتاريخ الفسطيني الحديث عن بن غوريون قوله "إذا كانت الحرب العالمية الأولى قد جاءت بوعد بلفور فالحرب العالمية الثانية ستأتي بالدولة اليهودية". (٢)

أنتجت هذه الثورات المسلحة الأدباء الكبار الذين سيخلد ذكراهم على مر العصور.ومن أبرزهم ابراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود، وابو سلمي (عبد الكريم الكرمي)، سميح القاسم، وحنا أبو حنا وغيرهم قرضوا وكرسوا

أشعارهم للقضية الفلسطينية وجففوا حبر قلمهم في ذكريات الوطن السليب. وفي طليعتهم محمود درويش. (٣)

ولد الشاعر الكبير الفلسطيني محمود درويش في زمن محصور ومحفوف بظروف مأساوية وفظائع حربية ترتبط خيوطها بالمرحلة الأولى من المقاومة التي بدأت منذ عام ١٨٩٧م، لكنه خرج من الأرض المحتلة وبدد هذه الظلمات ووضع مفتاحه على القـــفل الفلسطيني. (٤)

قبل أن نخوض في خلفية البحث عن الأوضاع السياسية والاجتماعية، يجدر الإشارة إلى عوامل رئيسية تعمل وراء تدهور الأوضاع السياسية بين السلطات الصهيونية والعربية.

الأوضاع السياسية

تقع فلسطين في قلب الوطن العربي وتحدها لبنان والأردن وسوريا واسرائيل وتتنوع مناظرها الجغرافية بين السهول الساحلية وشبه جزيرة عربية ووادي النيل فتقيم جسرا بين هذه المناطق الثلاثة، وبسبب ذلك تشكل الدولة اليهودية خطرا محتملا بالنسبة لباقي الدول العربية سياسيا واقتصاديا كما أكد الكثير من الكتاب العرب على هذه وجهة النظر في شتى مجالاتهم. (٥)

فعلى سبيل المثال، صرح نائب الرئيس المصري محمد على علوبة في مؤتمر البلدان عام ١٩٣٧ بأن الدولة اليهودية في فلسطين ستكون خطرا كبيرا بالنسبة لمصر والبلدان العربية المجاورة الأخرى، ومثل هذه الرؤية جاءت في يوميات محمد حسين هيكل حول السياسية المصرية الموضوعة خلال الثلاثينات والأربعينات. عبر هذا الأديب المصري في يومياته عن رأيه بشأن عوامل جذرية تعمل وراء هموم أعربها المصريون ازاء المسألة الفلسطينية وتحمل في طياتها طبيعة دينية وسياسية واقتصادية. منذ أن الوطن اليهودي الواقع على حدود مصر سيطرح تهديدا أمام مصر من الناحيتين السياسية والاقتصادية. (٦)

هذه حقيقة لا ينازع فيها اثنان أن الكيان الإسرائيلي في فلسطين سيوجه انذارا إلى البلدان العربية المجاورة كما أعرب عباس محمود العقاد، أحد الأعلام الأدبية المصرية عن رأيه من خلال عديد من المقالات المنشورة عن فلسطين والصهيونية قبيل نشوب الحرب ١٩٤٨م. وفي أحد منها إنه يقيم جدلا إذا وقعت فلسطين في أيدي الصهيونيين فالدول المجاورة ستتعرض لخطر اقتصادي في المستقبل القريب وتابع قائلا أن هذا الخطر سيتابعه التهديد السياسي والعسكري في فترة قصيرة قادمة من الزمن.

وبالإضافة إلى ذلك وصفت الكتب والمقالات والمجلات والدوريات فيما بينها مجلة فلسفة الثورة وغيرها من المصادر العربية الهيكل الإسرائيلي بأنه يطرح تحديات كبيرة إلى البلدان العربية المجاورة. (٧)

تعتبر دولة إسرائيل عاملا أساسيا يرجع إلى طرد الغالبية العظمى من الفلسطينيين وتشريد عن أوطانهم وديارهم وهجرتهم إلى البلدان المجاورة.

فمنذ عام ١٩١٤، ظهر الدراما السياسي وتوترت العلاقة بين العرب والأتراك وتحولت إلى مسرح الصراع من صعيد، فمن صعيد آخر، برزت مجموعة من المجتمعات العربية أمثال المنتدى الأدبي و القحطانية والعربية الفتاة خلال فترة ممتدة من ١٤-١٩٠٩ وبسطت جناحيهما على العالم بشكل سري وبسرعة بالغة.(٨) فأشار الكاتب الفلسطيني يوسف حداد إلى هذا الأمر قائلا " لقد شارك الفلسطينيون جنبا إلى جنب مع اللبنانيين والسوريين في جميع الأندية والجمعيات السرية والعلنية التي نشأت في الوطن وخارجه والتي تمثلت فيها مشاعر وطنية معادية للاتراك بتفاوت، ومن هذه الجمعيات المنتدى الأدبي والقحطانية والعربية الفتاة والعهد واللامركزية. كما شارك الفلسطينيون في المؤتمر العربي بباريس عام ١٩١٣ والذي انبثق من هذه الجمعيات". (٩)

اشتدت قوة هذا الصراع منذ العاشرة من حزيران ١٩١٦، رفعت الثورة العربية فيه رأسها ضد تركيا بقـيادة الشريف حسين (١٩٣١-١٨٥٦).

رفع الشريف رأية هذه الثورة على إيماء الوعود البريطاني على حركة الاستقلال العربي. وجاء ذلك نتاجا عن مراسلات جرت بينه وبين المندوب السامي البريطاني لدى مصر سر هنري ماكموهان. (١٠) ركزت المراسلات الثنائية اهتماما على تحديد المنطقة التي اعتمدت إليها حملة الاستقلال. ففي رسالة موجهة إلى سير هنري ماكموهان بتاريخ ١٤/يوليو ١٩١٥ قال أن المنطقة يجب تحديدها.

نص الرسالة فيما يلي:

On the north by Mersina and Adana up to the ٣٧ of latitude,... on the east by the borders of Persia up to the Gulf of Basra; on the south by Indian Ocean, with the exception of the position of Aden to remain as it is; on the West by the Red Sea, the Mediterranean Sea up to Mersina(١١)

بعث سير هنري ماكموهان رسالة جوابية إلى شريف مكة و هي كما يلي:

The two districts of Mersina and Alexandretta and portions of Syria lying to the West of the districts of Damascus, Homs, and Aleppo cannot be said to be purely Arab and should be excluded from the limits demanded.... Subject to the above modification, Great Britain is prepared to recognize and support the independence of the Arabs in all the regions within the limits demanded by the Sharif of Mecca.(١٢)

نظرا إلى نص هذه الرسالة، اعتبرها العرب ميثاق مطالباتهم المعروف بمغنا كارتا يتناول حقوقهم وامتيازاتهم المعينة وقاموا بادعاء فلسطين منطقة مشتملة من حدود الأراضي التي اعتمدت إليها حملة الاستقلال، وذلك بزعم أن

دمشق أقصى نقطة شمالية كما أشارت إليها الرسالة الكريمة. إلا أن الحكومة البريطانية تقوم بحجة بأن فلسطين منطقة بعيدة عن متناول المنطقة العربية.

وفي نفس الوقت، جرت جولة من المراسلات بين حسين-مكماهون من جانب، فمن جانب آخر، جرت مفاوضات سرية بين وزيري الخارجية البريطاني والفرنسي سر مارك اسكائس وجارجيز بيكوت.(١٣) عبر المؤرخ الفلسطيني ما جرى بين شريف مكة ومكماهون لفترة طويلة في ألفاظه "التقت وجهتا نظر الشريف حسين في مكة وقادة جمعيتي العربية الفتاة والعهد في دمشق حول التعاون مع بريطانيا ضد تركيا أملا بالوحدة والاستقلال، وجاء بروتوكول دمشق الذي تبناه شريف مكة أساسا في مراسلاته مع مكماهون. ثم جاءت اعدامات جمال باشا عام ١٩١٥ و ١٩١٦ لعدد من قادة الجمعيات المناهضين للأتراك كان من بينهم عمر النشاشيبي (القدس) وسليم الاحمد عبد الهادي ومحمد الشنطي (يافا). وكانت التهمة الموجهة ضدهم "هي العمل من أجل استقلال سوريا وفلسطين والعراق عن الدولة العثمانية". وزادت هذه الإعدامات في الهاب المشاعر الوطنية العربية وكانت إيذانا بإعلان ثورة الحسين بن علي على الاتراك عام ١٩١٦ بعد إنهاء مراسلاته مع مكماهون واتفاقه معه. لكن بريطانيا اقامت في العام نفسه وقبل أن يجف حبر اتفاقيتها مع الشريف ما عرف باتفاقية سايكس-بيكو بغية اقتسام بلاد الشام مع فرنسا، وفي العام التالي أغدقت الحركة الصهيونية وعد بلفور، ولم تشأ اطلاع حليفها الحسين على الاتفاقية والوعد، لأنهما متناقضان مع اتفاقيتهما المبرمة مع الشريف والتي تدور حول الوحدة والاستقلال، فاتفاقية سايكس-بيكو تمزيق للوحدة وزوال للاستقلال، ووعد بلفور تكريس للتجزئة وإقامة حاجز بشري غريب في فلسطين بين المشرق العربي والمغرب العربي. وبانتهاء الحرب الكونية الأولى بدأ الصراع داخل فلسطين وخارجها ضد الاستيطان الصهيوني

المعيق لاية وحدة والحائل دون قيام أي استقلال وضد الامبريالية الغربية التي نكثت بالوعود وخرجت على كل العهود المقطوعة للعرب". (١٤)

طبقا لاتفاقية سايكس- بيكو معقودة بين الدولتين في مايو ١٩١٦م، انقسم العراق وسوريا العظمى إلى خمسة أجزاء ممتازة: من المقرر أن الجزء الأول سيأتي تحت السيطرة البريطانية والجزء الثاني تحت الأيدي الفرنسية ويدخل الجزء الثالث في منطقة نفوذ بريطانية ويتمتع الجزء الرابع بالنفوذ الفرنسي وستقع فلسطين في فئة خاصة.

بعد أن ثارت الثورة الشهيرة بولشيفيك عام ١٩١٧م، كشفت الحكومة السوفيتية عن حقيقة الاتفاقية اسكائس-بيكوت فارتفعت حدة التوتر بين القوات العربية التي كانت تواجه وجها لوجه، وما لبثت أن تسارعت هذه الموجة العنيفة في انتشارها لتشمل جميع البلاد سارع ابن الشريف الفيصل (أصبح ملكا عراقيا في فترة تتراوح بين ٣٣-١٩٢١) إلى بعث رسالة برقية إلى والده أعرب من خلالها عن عدم قدرته على استمرار الحرب في هذه الأوضاع القاسية. وعلى أثرها أرسل شريف حسين رسالة جوابية إلى لندن وثم وجه رسالة تلغرافية إلى ولده الحبيب في سوريا بعد أن تلقى رسالة أكيدة من هناك. (١٥)

وأما ما يتعلق بفلسطين، فالحدث الهام للغاية الذي أثر في أبعاد البلاد المستقبلية وقع عام ١٩١٧م أصدرت فيه بريطانيا العظمى تصريح بلفور عن طريق الرسالة الموجهة من قبل المستر أرثر بلفور وزير الخارجية البريطاني يومئذ إلى اللورد بوتشيلد بصفته رئيسا للمنظمة الصهيونية الإنجليزية.كان نص الرسالة محتويا على العبارة التالية. (١٦)

يسرني أن أبعث إليكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك بالتصريح الذي ينم عن العطف على أماني اليهود الصهيونيين والذي رفع إلى الوزارة ووافقت عليه.

"إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي بفلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية مع البيان الجلي بأن لا يفعل شيئ يضر الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن، ولا الحقوق أو المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى". (١٧)

لاتهدف هذه الرسالة إلى إغراء اليهود الأمريكيين الأغنياء على استغلال نفوذهم الذي يجعل حكومة الولايات المتحدة تخوض في ساحة الحرب. (١٨)

في خلال فترة تمتد من ١٩٢٠-١٩١٧ عاشت البلاد في ظلال الحكومة العسكرية البريطانية الناجمة عن الاحتلال الواسع المفروض من قبل ايلنبي ولكن بعد أن عهد المجلس الأعلى للسلطات المتحالفة إلى بريطانيا العظمى بأخذ زمام الحكومة الانتدابية في فلسطين تأسست هناك إدارة مدنية في اليوم الأول من العام ١٩٢٠م وعين هوبرت صموئيل مندوبا ساميا.

قبل ثلاثة أشهر من تأسيس الإدارة المدنية عقد القادة السوريون والفلسطينيون بتعاون مشترك مؤتمرا في دمشق أعلنوا فيها بالإجماع بأن الفيصل سيتربع على عرش سوريا (فيما بينها فلسطين) ورفض المؤتمر رفضا تاما تلبية مقترحات تصريح بلفور والهجرة اليهودية ووجود كيان الكومنولث اليهودي ورفضت بريطانيا وفرنسا من جانبهما عن قبول قرارات المؤتمر والأفواج الفرنسية التي دخلت في دمشق في الخامس والعشرين من يوليو ١٩٢٠م طردت الملك السوري عن أرض سوريا وما لبث أن طرد منها شغل الفيصل منصبا ملكيا عراقيا جاء تحت سيطرة الانتداب البريطاني بمستوى مماثل فلسطيني، وفي فترة لاحقة، وضعت بريطانيا تاجا ملكيا عراقيا على الأمير عبد الله الإبن الثاني للحسين على الفور بشرط أنه سيتصدى الحملات الموجهة ضد الفرنسيين في سوريا. (١٩)

في هذا الصدد، وافق مجلس عصبة الأمم على صك الانتداب النهائي في اليوم الثاني والعشرين من العام ١٩٢٢ وعرضه على عرب فلسطين يجدون أنفسهم في ظل الانتداب الملتزم بتمهيد طريق أمام إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين. أعرب هؤلاء العرب عن معارضتهم بشأن تنفيذ الانتداب وسياسته الجديدة طوال مدته وركزت مطالباتهم دوما على ثلاثة قضايا محورية:

- توقف الهجرة اليهودية
- منع تحويل الأراضي العربية إلى اليهودية
- إنشاء حكومة ديمقراطية سيحظى العرب خلالها بحظ وافر من الأسهم على حسب أفضليتهم. (٢٠)

فنتيجة لردة فعل على الانتداب البريطاني وسياسته ومطالبات عامة، شهدت الأراضي المحتلة خلالها عامي ١٩٢٠-١٩٢١م نضالات جماهيرية متعددة وذات صلة مباشرة بمناهضة الانتداب البريطاني ومقاومة مخططاته واجراءاته التعسفية والقمعية والتوسعية حيث تم تنظيم العديد من المظاهرات الاحتجاجية وكذل شهدت حركة واسعة من الاضراب والاستنكار في المدن والقرى والمخيمات. فعلى سبيل المثال، عام ١٩٢٠م، وقعت الاضطرابات في بيت المقدس عندما شن العرب هجوما على الربع اليهودي من المدينة ووقعت في مدينة جافا ونواحيها المضيفة في هذه الاضطرابات والخلافات وفرضت الأحكام العرفية على البلاد وفرض الحظر على الهجرة اليهودية لفترة قصيرة من الزمن. (٢١)

إن الاشتباكات الخطيرة المعروفة بالبراق (حائط المبكى في القدس) انفجرت في كل مكان من البلاد وذلك عام ١٩٢٩م. يمثل هذا الحائط أرضا مقدسة لأبناء الاسلام واليهود على السواء . من ناحية، إنه يعتبر معبدا يهوديا فمن ناحية ثانية، قبلة أنظار العرب وموضع تقديرهم واحترامهم على اعتبار

أنه جزء لا يتجزء من الحرم الشريف من حيث بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم زيارته السماوية راكبا على البراق في ليلة الإسراء والمعراج. وقعت هذه المفأجاة في حين سعى اليهود سعيا تاما وراء توسيع مدى امتيازاتهم وحقوقهم المعينة الممنوحة من قبل الحكومة التركية فتعرقل العرب في طريقهم وقدموا شكاوي ضدهم مما دعت الحكومة الفلسطينية إلى طمس المعالم اليهودية بمناسبة يوم صوم الغفران عام ١٩٢٨م. كما شعر اليهود بمؤامرات عربية فثارت ثائرتهم وشنوا حملة من المظاهرات أمام حائط المبكى حاملين أعلامهم في أيديهم وثائرين هتافات ونعرات حرضت العرب على القيام بتظاهرات مماثلة مضادة أسفرت عن اضطرابات متلاحقة سادت على جميع أنحاء البلاد مما أدت إلى خسائر جسيمة من الأرواح على حد سواء. (٢٢)

بعد إمعان النظر في الإجراءات القانونية اللاحقة المتخذة ضد الطرفين حكم ست وعشرون شخصا بالإعدام بمن فيهم خمس وعشرون عربيا ويهوديا وحولت عقوبة جميع العرب إلى السجن إلا ثلاثة أشخاص. (٢٣)

في عقب أحداث مسفرة عن البراق كسبت قضية العرب الفلسطينيين المؤاساة والحماسة العربية الخارجية التي انعكست ظلالها في يقظة الشعراء العرب بصورة جعلت فلسطين فكرة مألوفة عن شعرهم. (٢٤)

بحلول عام ١٩٣٣م، تحولت المعارضة الفلسطينية إلي اصطدامات جابهتها الحكومة واليهود. كان أول معركة خاضتها الجماهير الفلسطينية والقوات الانتدابية.

لاقت السلطات الانتدابية معارضة شديدة في الفترة المترواحة بين ١٩٣٩-١٩٣٦ عندما بدأت الظاهرة الثورية إضرابا عاما مستمرا لمدة ستة شهور ودبت موجتها على سطح جميع البلاد فوصلت الأفواج البريطانية الإضافية من دولتي مصر ومالتا من أجل تهدئة الأوضاع لكنها أخفقت في تحقيق هذه الغاية واستمرت موجة العنف لمدة ثلاثة سنوات حتى نشوب

الحرب العالمية الثانية بأهوالها. أفادت مصادر عربية بأن خمسة آلاف واثنى وثلاثين قتلوا وأربع عشر آلاف وسبع مائة وستون شخصا أصيبوا بجروح في تلك الثورة. (٢٥)

إلا سنوات الحرب العالمية الثانية التي كانت البلاد خلالها في جو الهدوء والسكون التام تأسست جامعة الدول العربية في مارس عام ١٩٤٥م وثم أصبحت فلسطين بؤرة اهتمام الجامعة.

وفيما يتعلق بخطوات نهائية ختمت على مستقبل فلسطين جاءت تحت خطة بريطانية موضوعة في اطار انسحاب الانتداب عن البلاد وقدم التماسا إلى الأمين العام للأمم المتحدة لإدراج القضية الفسطينية في قائمة القضايا التي سيتناولها الجمعية العامة من جلسة قادمة لها بانتظام. شكلت الأمم المتحدة لجنة خاصة توجهت نحو فلسطين وتوصلت إلى أن السبيل الوحيد للوصول إلى حلول المشاكل تقسيم الدولة فوافق ١٩٤٧ شخصا على هذا الاقتراح بالمقارنة مع ٣٣ شخص. (٢٦)

رفض العرب خطة التقسيم على الإطلاق وعالجوا مع القلق والاضطراب اللذين يسودان على البلاد وعندما أعلنت بريطانيا عن انسحابها عن البلاد بنهاية مايو ١٩٤٨ بعث الأمين العام لجامعة الدول العربية رسالة برقية إلى نظيره لدى الأمم المتحدة في الرابع عشر ١٩٤٨، مشيرا إلى أن الدول العربية أجبرت على المساهمة استتباب الأمن والسلام وإعادة توازن الأمن والوضع في المنطقة، فالعساكر الوافدة من كل من الأردن والسوريا ولبنان ومصر والعراق والمتطوعون القادمون من العربية السعودية ودولة اليمن وجمهورية السودان وليبيا شاركوا في معركة قتالية ضد اليهود. (٢٧)

في الثاني والعشرين ١٩٤٨م تبنى مجلس الأمن التابع للامم المتحدة قرارا يدعو إلى وقف إطلاق النار واستأنف القتال في اليوم التاسع من يوليو ١٩٤٨ وتم قبول خطة وقف اطلاق النار الثانية في الثامن عشر من يوليو من

نفس العام. ففي عام ١٩٤٩ من جهة، وقعت إسرائيل ومصر اتفاقات الهدنة فمن جهة ثانية، وقعت لبنان والأردن والسوريا عليها.

وانطلاقا من هذه الاتفاقيات أخذت إسرائيل ٧٧,٤٠% من منطقة فلسطينية إجمالية بدلا من ٥٦,٠٤٧% من منطقة تخصصت لدولة يهودية من قبل الأمم المتحدة وفقا لخطة ١٩٤٧.

منذ توقيع اتفاقات الهدنة الأخيرة يبلغ العدد الإجمالي من اللاجئين الفلسطينيين الذين كانوا طردوا إلى البلدان العربية المجاورة حوالي ٧٥٠٠٠ ألف وبقي حوالي ١٦٠،٠٠٠عربيا في إسرائيل. يشكل هذا العدد الإجمالي ٦٠,١٣% لإسرائيل.

هاجر الفلسطينيون إلى البلدان المجاورة أمثال لبنان وسوريا والأردن وغيرها في ثلاثة مراحل مروا بها والشاعر المقاوم محمود درويش كلاجئين منذ لجوئهم إلى الحدود المتصلة ببلادهم.

والسببان الرئيسيان لتوجهم إلى لبنان هما:

١- قرب الحدود اللبنانية من قراهم ومناطق سكناهم آملين أن الجيوش العربية لن تتلكأ في طرد العصابات الصهيونية خلال فترة قصيرة جداً .

٢- حالة التزاوج والمصاهرة بين سكان الجليل وشمال فلسطين عموماً واللبنانيين كانت ظاهرة واضحة نجد خلفياتها في التواصل والتبادل التجاري بين عكا وصيدا في جنوب لبنان (وللتذكير فقد كان ميناء حيفا وشركة النفط فيه وغيرها تشكل نقاط جذب للعمالة اللبنانية) ومن هنا نستدل أن الهجرة الفلسطينية إلى لبنان لم تكن عشوائية.

المرحلة الأولى: (٢٨)

في هذه المرحلة لجأ مائة فلسطيني إلى الجنوب اللبناني على الأقل حيث تجمعت أعدادهم في منطقة صور بصفة خاصة واتخذت البرج الشمالي مخيم رشيدية محطتي انطلاق توزعوا منها في المخيمات الأخرى. بدأت

العائلات الأولى الفلسطينية نزوحا طويلا فردانيا منذ عام ١٩٤٧ بنسبة لاتذكر ومعظمهم اعتاد المناخ سالفا في لبنان أو استقر أقاربهم وأنسابهم فوفرا لهم مساكن في المدن والمصارف لتمضية العطلة السنوية الصيفية ريثما تهدأ عاصفة المعارك كما كانوا يتوهمون.

أجرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر آنذاك ١٩٤٨ ووكالة الغوث الأونرا في عام ١٩٥٢ دراسة شاملة شملت هذه المجموعة في سجلات المديرية العامة للأمين العام ومديرية شؤون اللاجئين. ولا اعتراض لأحد على إقامتهم في لبنان وعليه منح هوية خاصة ووثائق سفرلهم.

المرحلة الثانية:

بدأت المرحلة الثانية منذ أن منحت السلطات اللبنانية فيها بإجازة دخول اللاجئين الفارين من الممارسات الوحشية والاعتداءات الصهيونية في صيف ١٩٤٨، وأغلـقت الحدود الجنوبية لهم واعتبرت كل لاجئ يصل عبر الحدود إلى لبنان بأنه ساكن غير شرعي يخالف القانون وقد استمر بعضهم في حالة إياب وذهاب للوطن المحتل. فقد دفعت الظروف القاسية الغالبية العظمى من اللاجئين إلى العودة إلى قراهم من أجل الحصول على بعض ممتلكاتهم وخبراتهم لسد رمق عائلاتهم وتلبية حاجاتهم، واستمر لجوء عدد قليل من سكان القرى الشمالية الذين كانوا عرضة للصهاينة وتدمير قراهم وطردهم رغم وقف اطلاق النار.

شنت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عدوانا ثلاثيا ضد مصر عام ١٩٥٦م. كان هدفها دفع القوات العسكرية الإسرائيلية لاحتلال غزة تخضع آنذاك للإدارة المصرية وارتكاب المذبحة الجماعية. اضطرت هذه الأعمال الشنيعة عددا من السكان إلى الهروب مرة أخرى إلى مصر وسوريا ووصل حوالي خمسة آلاف فلسطيني منحتهم السلطة حق الإقامة بموجب بطاقة بيضاء اللون مغادرة عن الأمن العام اللبناني إلى لبنان عبر البحر لكن وكالة الأونرا لم

تـــتمكن من نقل سجلاتهم من غزة إلى لبنان وأصبحوا محرومين بذلك عن خدماتهم. هذه الزمرة تضم كل جميع اللاجئين الذين لم يحتويهم إحصاء اللجنة الدولية للصليب الأحمر ١٩٤٨م، رقم إقامتهم في لبنان. وقد سويت أوضاعهم لاحقا بموجب المراسيم الرئاسية وهي المرسوم رقم: (٣٠٩ لعام ١٩٦٢) والمرسوم رقم ١٣٦ لعام (١٩٤٩) وحصلوا على وثائق مرور ليتمكنوا من السفر والتنقل في جميع أرجاء لبنان بحرية.

المرحلة الثالثة:

بدأت هذه المرحلة مشوارها منذ عام ١٩٦٧م حيث سقطت فيها الضفة الغربية وقطاع غزة في أيدي الاحتلال الإسرائيلي، وبدأت حركة المقاومة الفلسطينية في النهوض والنشوء. فقد توجهت مجموعة من كوادر وقيادي الحركة واتخذت ملجأ ومخيمات وقواعد الحركة الفدائية ملجأ ومأوى لها. ولم تمض أيام أن تزايد هذا العدد بعد انفجار الصدمات الدموية في الأردن ووقوع معارك أيلول الأسود عام ١٩٧٠ ومعارك جرش ١٩٧١ التي أبعدت المقاومة الفلسطينية المسلحة من الأردن. وقد وصل عدد من قادتها وكوادرها ومقاتليها إلى الجنوب اللبناني. وقد تضخم هذا العدد مع انفجار الحرب الأهلية في لبنان ابتداء من عام ١٩٧٥ فصاعدا، ولكنهم في عام ١٩٨٤ نتيجة للاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان من إخراج المقاومة، غادر الآلاف من الفلسطينـــيين سوريا حوالي ١٤٠٠٠ نسمة وبقي عدد من هؤلاء في البقاع الشمالية، وعاد البعض لاحقا ممن غادروا. إلا أن اندلع الصراع بين فصائل/شقي فتح عام ١٩٨٣ أدى إلى نزوح جديد لعدد كبير من المقاتلين والكوادر لعائلاتهم، وقدر العدد بنحو ٥٠٠ نسمة.

الأوضاع الاجتماعية: (٢٩)

تحتضن أرض فلسطين بالمسجد الحرام والمسجد الأقصى المبارك اللذان يشكلان كعبة أنظار المسلمين ومهاوي أفئدتهم. احتل المسجد الأقصى

مكانة ومنزلة ثالثة في الإسلام بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي. وليس شد الرحال إليه وزيارته والصلاة فيه بخمسمائة صلاة عما سواه من المساجد. تدل كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على قداستها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد هذا والمسجد الأقصى.

وقال صلى الله عليه وسلم "الصلاة في مسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة. والصلاة في بين المقدس بخمسمائة صلاة.

وكذلك تنص الآيات القرآنية عليها " سبحان اللذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله و "نجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها".

مازالت المخططات الصهيونية تنتهك حرمات الأماكن المقدسة الدينية الإسلامية وممتلكات الوقف الإسلامي في فلسطين ولها سجلات مشبوهة في تاريخ هذا البلد. تأتي الديانات السماوية والمقدسات الإسلامية ضمن قائمة طويلة في الاعتداءات الغاشمة عليها في عصرنا هذا منذ عهد الانتداب البريطاني حتى الآن. قد أضرت المؤامرات الصهيونية الأضرحة المقدسة بأشكال متعددة. من ناحية، إنها قد هدمت المساجد وأزالت معالمها وحولتها إلى بارات ومقاهي ومتاحف وأماكن مسيحية ، فمن ناحية أخرى، جرفت المقابر أو حولتها إلى ملاعب وحدائق ومواقف السيارات أو بنت المباني السكنية عليها.

تشير الأرقام الإحصائية أن عدد المساجد التي هدمت بين عامي ١٩٤٨ م و ١٩٦٧ بلغ حوالي ٤٨٠ مسجدا، والمقابر المهدمة حوالي ٤٠٠ مقبرة. ووفقا لإحصائيات أخرى، يقدر عدد المساجد المهدمة بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨٦ بعدد غير متوقع.

خلاصة القول أن عهدا يمتد من عهد الانتداب البريطاني إلى حروب متتالية ترتبت آثارا سلبية على المقدسات الإسلامية كما نجمت عن الاوضاع الصحية والتعلمية على السواء.

أولا، نود تفقد الأوضاع الصحية التي تواجه الشعب الفلسطيني في لبنان منذ هجرتهم إلى البلدان المجاورة فيما بينها لبنان.

تقول التقديرات السكانية بأن الأوضاع الاجتماعية للاجئين في لبنان كانت تتفاقم وأصبحت معيشتهم علامة على البؤس والفقر والشقاء والمجاعة، وكانت مساكنهم متلاصقة وحالتهم النفسية سيئة للغاية أسفرت عنها عادات اليأس والاحباط، وتحولت مخيماتهم إلى ثكنات عسكرية. في هذا السياق، أصدرت هيئة الأمن العام اللبناني قرارا إداريا سريا يقضي بمنع زيادة مساحة مخيمات، كما يقضى بمنع بناء طوابق فوق "بناء عامودي" حتى يشترط بأن يكون البناء من جدران حجر وسقف من الصفيح، لذلك فإن النمو السكاني للاجئي كان نتيجة عن الولادات لا تجد لها مكانا لها واضطر إلى المغادرة.

جعل هذا القرار الإداري مكانا إجباريا للاجئين فشكل بذلك مجمعا لأبناء عدة أحياء أو قرى، أو أجزاء من مدن، ليكون بذلك كيانا اجتماعيا غير متناغم يفتقر إلى مقومات المجتمعات الإنسانية المعروفة، فنتيجة لذلك لم تتمكن المخيمات من القيام بأي دور اجتماعي يعود بالنفع على سكانه، وبالإضافة إلى ذلك كانت المخيمات بعيدة عن مراكز التجمع السكاني اللبناني مما خلق نوعا من العزلة قبل أن تتسع المدى والقرى لابتلاعها.

ينتمي معظم اللاجئين الفلسطينيين إلى طبقة الفلاحين الذين فقدوا مصدر الكبرياء والمكانة الاجتماعية فضلا عن انتظارهم الطويل للمعونة المالية المقدمة من قبل الوكالة الأونرا. كان الفلاحون يشعرون بذلة وامتهان كرامتهم وإنسانيتهم.

مع أن الوكالة "الأونرا" قامت بتوفير الأغذية والملابس والوسائل التعليمية، إلا أن تلعب دورا محوريا في ميدان السياسة وفي سبيل توطين اللاجئين هناك بشكل سري تحت شعار "المساعدات الإنسانية".

أما السلطات اللبنانية فإنها حاصرت المجتمعات حصارا شديدا لأنها رأت فيها مجموعة سكانية كبيرة تملأ قلوبها بعواطف النقمة، ورأت السلطات أيضا في جسدها جرثومة قد تؤثر الكيان الديمغرافي والسياسي والاقتصادي للبلاد. هذا الأمر كان غير مقبول لدى السلطة وشكل لها هاجسا أمنيا دفعها لفرض الهيمنة على تلك المجتمعات وفرض رقابة أمنية صارمة من خلال استخدام أجهزة الأمن، وأدت هذه الرقابة إلى حرمان الفلسطينيين من الحريات العامة، وهذا بدوره انعكس موجدا علاقات عدائية بين سكان المخيمات والسلطة خاصة أن ممثلي هذه السطلة قد مارسوا دورا قمعيا فاضطهدوا السكان وابتزوهم فقد الأمان والحسر للشعور بالحرية.

في ظل هذه الأوضاع بدأ الفلسطينيون يعانون من أوضاعهم المعيشية الصعبة وأخذوا يصبحون قرية واحدة على أساس الصلات المدنية والقروية والمناطقية الفلسطينية ويبحثون عن سبل العيش والعمل والإنتاج لاستعادة التوازن المفقود.

فبينما يعاني الجيل القديم من حسرة الغربة بسبب فقدان أوطانهم وفشل جهودهم وكدحهم المبذولة خلال عقود، نشأ الجيل الجديد ورفض واقعة مريرة رفضا تاما وتوجه إلى الأمام بعزم وثبات لتجاوز هذه العقبات وتحرك حاملا المسؤولية على عاتقه عن مواجهة هذه المحنة باحثا عن لقمة العيش والعمل لتوفير الكفالات المضمونة لأسرة ممتدة وتزويد وسائل التعليم للأخوة من أجل تسليحهم بالأسلحة الحديثة العلمية واستيقاظهم من النوم. وكل ذلك يأتي في صدد استعادة كرامتهم وعلو شأنهم ومقدرتهم ووطنهم المسلوب.

فأعرب جيل الآباء عن حنينهم لبلادهم وأطفالهم وقصوا قصة بطولية عن الأبطال الذين بذلوا حياتهم في محاولة الدفاع عن الأرض المحترمة. فبعثت من هناك ومشاعر حية تدفع القلوب على الالتزام باستعادة الأمتعة المفقودة.

وبذلك أصبح اللاجئون متماسكين ومرتبطين بتجمعاتهم وأرضهم إلا أن هذا التماسك لم يكن كافيا للقيام بأي شيء في هذا المجال، بل كان هناك شعور بضرورة إدارة محور جديد يلعب دورا كفاحيا سياسيا ويسهم في رحلة العودة الى الوطن.

ورغم أن جذور هذا المحور ترجع إلى إعلان الكفاح المسلح عام ١٩٦٥م إلا أن سقوط بقية فلسطين في القبضة الصهيونية عام ١٩٦٩م الذي وضع حجر أساس العلاقات الجديدة بين السلطات اللبنانية والفلسطينية توجت بإعلان اتفاق القاهرة (١٩٦٩) المعقود بين الحكومة اللبنانية ومنظمة التحرير في ربيع ١٩٦٩م، وتضمن الحقوق المدنية للفلسطينيين إضافة للبنود العسكرية. وحظى اللاجئون بعدها بحرية عامة إلى حد ما إلا أنها غير مرسومة بالقانون مما أدى إلى عودة الوضع إلى ما كان عليه. وقد أصبح هذا الأمرممكنا بعد خروج المقاومة من بيروت ١٩٨٢م.

يتميز الوجود الفلسطيني في لبنان بأهم السمات الاجتماعية وهي كما يلي:

- حمل اللاجئون الفلسطينيون معهم إلى المخيمات ما عرفوه قبل اللجوء من تراتيبة اجتماعية ومناطقية كرست للأعيان في العائلات الكبيرة وجاهة الحي ولرجالات البلدات الكبيرة ميزات إضافية.
- كان الأفراد والعائلات غارقين في هذه الخلافات الداخلية حتى تأثرت القرى والمناطق بآثارها لكن ظهور المقاومة حد من آثارها العشائرية.

Jawaharlal Nehru University Library
TH-18007

- تولدت المشاعر في قلوب أبناء المدن والقرى لفترة قصيرة من الزمن بأوضاعهم المعيشية المتدهورة يوما فيوما لأنهم تمكنوا من معالجتها بحكم معايشتهم السابقة للإدارة البريطانية مما مهد الطريق إلى فرص عمل ووظائف أدت إلى تحسين مستوى أوضاعهم.
- أفرزت نهضة حركة المقاومة قيما اجتماعية جديدة تركت آثارا إيجابية على الوضع الاجتماعي.
- مع أن بعض اللاجئين حققوا نجاحا كاملا في مجال الاقتصاد، وشكلوا نسبة ٣٠% من العدد الإجمالي، إلا أن شطبت أسمائهم من سجلات الإغاثة حيث عبرت الأونرا عن رأيها بشأن آثار النكبة بأنها محصورة بالحاجة الاقتصادية، وهذا الأمر يتعارض مع الواقع لأن فقدان الهوية الوطنية والأوضاع المتدهورة جوهرا لمعاناة الفلسطينيين وكذلك يعتبر انهيار المجتمع الفلسطيني عاملا حقيقيا لانهيار المكانة الاجتماعية التي حافظت على أهميتها في الحياة الاجتماعية للاجئين بسبب ميراث الحكم العثماني واخفاق تجربة تحديث المجتمع الفلسطيني قبل النكبة.
- كان المجتمع الفلسطيني متسما بالسلطة الأبوية التي فرض الكبير خلالها سلطته على الصغير والذكور على الإناث وتم الحد من الحريات الفردية، وسببها أزمة سكانية مما جعلت المجتمع يمتاز بالطابع العائلي والعشائري.
- كان المؤظفون والعاملون في مرافق المخيم عاجزين عن الوفاء بالتزاماتهم مما أحدث فجوة بينهم وبين سكان المخيم. أدت هذه الفجوة إلى انفجار المشاكل وفقدان الثقة بالنفس.
- حافظ أبناء فلسطين على ارتباطهم بالاجتماع والأرض بسبب التركيب الطائفي للمجتمع اللبناني مما عرقل في طريق اندماجهم فيه.

- أظهرت الثورة كل الوضوح بأن الذين يبذلون تضحياتهم وأرواحهم النفسية ويستشهدون غالبيتهم الفقراء والكادحون مما أحدث تحولا كبيرا في أبعاد المكانة الاجتماعية.
- لايزال السكان يعانون من معاناة شديدة في المخيمات. يرجع هذا السبب إلى الكثافة السكانية، ويسكن حوالي ٦٠% منها مجانا على الاطلاق ويدفع ٣٠% أجورا ضئيلة بينما يمتلك الباقون مساكنهم.
- عاشت المخيمات ظروفا صعبة تمثلت بصورة عامة في أزمة مائية وأماكن ضيقة مما شوهت علاقة الآباء بالأبناء وأفضت إلى حدوث مشاكل كبيرة.
- حصل حوالي ٥٠،٠٠٠ من اللاجئين على الجنسية اللبنانية.
- دفع الفلسطينيون لبنان ضريبة باهظة جاءت نتاجا عن الثورة المسلحة التي بدأت على سطح الأرض الاجتماعية على كافة المستويات. وأهمها ضريبة الدم المسفرة عن التفكيك الاجتماعي. مارست بعض الفصائل أعمالا عنيفة تسببت في تحول الفساد إلى سياسة تقضي باتخاذ شعار "مال الثورة للثوار" مما نجمت عن ظهور مجتمع سياسي مليشياوي قابل بمجمع أهلي مدني لبناني. بعد أن خرجت الثورة المسلحة عام ١٩٨٢ بدأ المجتمع السياسي الميليشاوي يفقد مكانة مركزية وانطلق هذا الانحطاط خاصة منذ أن تجففت الموارد المالية ونتيجة لذلك، سقط هذا المجتمع بعد سحب العطاء السياسي الذي نقل عن حرية بعد التراجع السياسي.
- ظهر التـناقض في صف المجتمع السياسي الفلسطيني والمجتمع الأهلي اللبناني، فمن جهة أخرى، ظهر التناقض الآخر بين المجتمع الفلسطيني في لبنان والخارج الفلسطيني. كان هذا التناقض متمثلا في قيادة منظمة التحرير الفلسطينية حيث نشر وعم شعور بأن فلسطينيين

في لبنان منسيون نسيا منسيا لمساهمة إسمية في القيادة بالرغم من تقديم التضحيات الغالبية ومثلما بدأ التناقض على سطح فلسطين ولبنان بعد أن تمكنت المؤسسة الرسمية الطائفية المذهبية من الترسيخ في أعماق قلوب الاجتماع اللبناني قناعة تفيد بأن فلسطين تأخذ مسؤولية عن تفجير في لبنان على كتفهم. قد تؤدي هذه القناعة إلى إثارة جو الكراهية أو في أحسن الأحوال الحساسية العالية نحوهم.

- ضربت جذور التناقض أطنابها في أعماق قلوب الفلسطينيين الذين لجأوا إلى لبنان ووفدوا بعد حرب ١٩٦٧م من غزة وضفة، وعقب أحداث ١٩٧٠و ١٩٧١ المأساوية، تمت التعيينات على المناصب القيادية الممتدة على الوافدين حرب ١٩٦٧ أو دفع بعض التنظيمات إلى المسرح الداخلي.
- اختلف الوضع الاجتماعي إلى حد كبير تمثل بأنواع المساكن وتجهيزاته وأثاثه وأخرجها في حياة لاجئة.
- نشبت العصبية الفلسطينية في الخمسينات كعنصر يحافظ ويبقى على الشخصية الوطنية وملامحها وعاد مرة أخرى في الستينات ردا على فقراء المخيمات المتوسطة والكبيرة من أجل الحصول على جنسيات اخرى.
- استمرت العوامل الجزئية في تكوين الشخصية لدى اللاجئين. ويتجلى ذلك في المواقف التي تبناها سكان القرى السبعة: التي ضمت إلى فلسطين في معاهدات ١٩٢٠م تطبيقا لاتفاقية سائكس-بيكوت. أصر سكان القرى على كونهم فلسطينيين عندما خيروا تحديد أسمائهم، فناضلوا بعد النكبة في صفوف فلسطينية بينما كثفوا جهودهم بعد مفاوضات جرت في ١٩٧٢ في إطار الحصول على الجنسية اللبنانية

بسبب التأثـــيرات الاقتصادية للحرمان المفروض عليهم من قبل السلطات اللـــبنانية ومنح الحقوق المدنية لإبقاء فلسطين في لبنان.

الأوضاع التعليمية : (٣٠)

يمتاز لبنان بوجود حوالي ٧١ مدرسة تشرف عليها الوكالة الأونرا تضم حوالي ٣٩٤٥٦ طالبا، ويقوم البرنامج التعليمي في الأونرا بتوفير المرحلة الابتدائية والإعدادية لمدة تمتد على تسع سنوات لأطفال عمرهم ٦-١٥ سنة. وهاتان المرحلتان تمثلان جوهرا للبرنامج التعليمي في الأونرا، ولاتدخل مرحلة ما قبل التعليم الابتدائي ضمن برنامجها باستثناء عام ١٩٩٤، حيث تم افتتاح أربع رياض لأطفال بهدف تسليحهم باللغة الفرنسية التي اعتمدت إليها جميع مدراس الأونرا، وعلى الأرجح إنه جاء في إطار برنامج تطبيق السلام. نظرا لضيقة اقتصادية واجتماعية يواجهها اللاجئوون في لبنان ويطالبون مرارا وتكرارا بافتـــتاح مدارس ثانوية في جميع المناطق اللبنانية. استجابت الأونرا لمطالباتهم تلقائيا وتفضلت بافتـــتاح مدرسة ثانوية واحدة في مدينة بيروت عام ١٩٩٤م والتحق بها آنذاك حوالي ٨٥ طالبا ارتفعت نسبته بشكل كبير في الأعوام التالية إلى أن وصل عام ١٩٩٦ حوالي ٢٦٥ طالبا.

منذ مطلع النصف الثاني للقرن العشرين ازداد عدد الملتحقين بمدارس الأونرا حتى وصل هذا العدد في العام الدراسي ٧٦/٧٥ حوالي ٤٧٥٢٦ طالبا وطالبة، وإذا كان المنطق يقضي بارتفاع العدد بسبب الزيادة الطبيعية للسكان ، فقد سجل في بعض الأعوام انخفاضا مريعا وقد تكرر هذا في السنوات ١٩٨٢ ، ٨٤، ٨٨. أعد المفوض العام للأونرا تقريرا شاملا للعام ١٩٨٥م. يقول التقرير بأن نسبة الذين تتروح أعمارهم بين الخامسة والتاسعة عشرين اللاجئين في لبنان هي ٣٦ بالمائة من مجموع المسجلين البالغ حوالي ٨٠ ألف نسمة. بلغ عدد المجلس في مدارس الأونرا حوالي ٣٤٩٢٠ طالبا، منهم

حوالي ٢٤٥١٦ طالبا في المرحلة الابتدائية،وحوالي ١٠٤٠٤ في الإعدادية ومعناها إنه هناك ما يقارب ٥٠ ألف شخص ظلوا خارج مقاعد الدراسة.

يرجع عديد من الأسباب إلى انخفاض العدد ما بين عام وآخر، يرجع بعضها إلى العوامل الأمنية والحروب في فترات مختلفة وبعضها الآخر إلى اسباب اقتصادية، وكان بعض الناس غير قادرين على توفير الأسباب التعليمية لكل أفراد العائلة مما يؤدي إلى زج أفراد الأسرة في وقت مبكر إلى سوق العمل للمساعدة في مواجهة الأحوال الاقتصادية والصحية. وهناك أيضا سببا لايقل أهمية عن الأسباب المذكورة، وهو نقص عدد المدارس وقلتها وبسبب ذلك اكتظت الصفوف، فقد شهدت الفترة خلال الأعوام ١٩٨١-٩٢ انخفاضا ملحوظا في عدد المدارس من ٨١ مدرسة إلى ٧٥ مدرسة ثم ٧١ مدرسة عام ٢٠٠١م.

الأوضاع الصحية: (٣١)

يعاني الشعب الفلسطيني من مشكلات صحية خطيرة منذ أكثر من خمسين عاما وذلك بسبب ارتفاع تكاليف المعدات العلاجية والمقومات الطبية والخدمات الصحية ولعدم استفادة الفلسطينيين من تسهيلات توفر الضمانات للصحة الانسانية بشكل أفضل وبالإضافة إلى ذلك تقلصت الخدمات الصحية وانخفض مستواها.

في هذا الصدد، ناقشت منظمات العمل الأوضاع المتدهورة في فلسطين وصعوبات تقديم المساعدات الإنسانية وآليات العمل المطلوبة لتنسيق إيصال المساعدات الانسانية الاسلامية على النحو الأفضل للشعب الفلسطيني من تخفيف آلامه وإعانته على مواجهة الآثار الناجمة عن العدوان الإسرائيلي المستمر والمتصاعد الذي يتسبب في تفاقم الأوضاع المعيشية الانسانية في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

ومن أهمها جمعية الهلال أحمر الفلسطيني والأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الاسلامي.

وبالنسبة للوضع الانساني تقدمت جمعية الهلال أحمر الفلسطيني ورقة تظهر حجم المعاناة التي يمر بها الشعب من خلال الوضع الصحي المتردي في فلسطين والذي يتلخص في ثلاثة محاور: الوضع المالي، الوضع الأمني والوضع الانساني.

ومن الواضح أن تردي الوضع الصحي سوف يكون له أثر سلبي على المؤشرات الصحية وارتفاع نسبة الوفيات وازدياد في الأراضي المزمنة، وذلك بسبب توقف بعض الخدمات الصحية وعدم القدرة على دفع النفقات التشغيلية للمرافق الصحية، فضلا عن أن أوضاع الإسعاف والطوارئ تتأثر أيضا وبشكل كبير وذلك بسبب ازدياد الطلب على الخدمة والنفقات التشغيلية حيث تواجه جميعة الهلال الأحمر الفلسطيني أزمة مالية في دفع الرواتب والنفقات التشغيلية.

استعرضت هذه الورقة أوضاعا متردية صحية تسببت في عدم دفع الرواتب وقلة تسويق المنتجات المحلية وضعف القوة الشرائية وعدم دفع سلطات الاحتلال الإسرائيلي للأموال المستحقة للسلطة الوطنية الفلسطنية من أموال الضرائب والجمارك، كما أظهرت الورقة الوضع الاجتماعي الخطير الذي ازداد خطورة عام ٢٠٠٦م حيث تسرب الطلبة من المدارس بحثا عن مصادر الرزق. نشبت هذه الظاهرة نتاجا عن الضغوط النفسية على الأسر الناجمة عن ممارسات جيش الاحتلال والأزمة المالية والحواجز الإسرائيلية وجدار الفصل.

قرية البروة: تاريخها وأهميتها (٣٢)

تاريخها: إذا أمعنا النظر في متحف تاريخ البروة وأهميتها فنجدها حافلة بحسنات وسيئات. وفي بداية الأمر أؤد الإلـــقاء نظرا عميقا على تاريخها.

عصفت عاصفة هوجاء في البروة. جاءت ريح رعدية لأول مرة عام ١٩٣٦م كظاهرة ثورية وصعقت صاعقة ثانية كحرب مدمرة عام ١٩٤٨م. خلال هاتين الثورتين بذل أبناء القرية جهودا شاقة وأبلوا بلاء حسنا ضد قوات الانتداب البريطاني. يؤكد الكاتب صبحي ياسين أن الثورة ١٩٣٦ اندلعت نيرانها انطلاقا من انفجار اللغم عند مفرق قرية البروة حيث قام وضع عدد من المجاهدين لغما عميقا مرت به ثلاث سيارات عسكرية آتية من مدينة عكا ومتجهة نحو سخنين. انفجر هذا اللغم تحت السيارة الأولى وأسفرت هذه العملية عن ١٢ مقتل جنديا و٥ إصابات بالغة. بعد انفجار اللغم عادت السيارتان الباقيتان إلى عكا وشرعت قوات كبيرة في القيام بعمليات تخريبية في البروة وشعب والدامون وأطلق السكان على هذه العملية اسم "موقعة الصبر" لأن القوات البريطانية حشدت حشدا كبيرا من رجال القرية وأجبرتهم على قطع ألواح الصبر ثم قامت بالـــقائها عليهم.

ومن المآثر المشهورة التي قام بها السكان المسلمون هي مساهمة في تعيين خوري البروة، الخوري جبران. من أجل ذلك إنهم وقعوا على عريضة وارسلوا وفدا منهم إلى البطريرك عن سبب اهتماهم بالخوري فأجابوا! كيف لا؟ إنه سيكون بالطبع خوري البروة وسيمثلنا جميعا. فتأثر البطريرك بكلامهم حتى دمعت عيناه ووافق على تعيينه رغم إنه لم يكن متدينا.

وفي عام ١٩٤٨م، دمرت قوات الاحتلال الإسرائيلية معظم أجزاء القرية وفرضت عليها احتلالا غاشما فليس له أي سبيل إلا أن يهاجروا إلى البلدان المجاورة من أجل الدفاع عن أنفسهم.

طبقا لقرار التقسيم رقم ١٨١ الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٧م، فان شارع البروة- عبلين يفصل بين الدولة اليهودية الواقعة في الجانب الغربي والدولة العربية الموجودة في الجانب الشرقي، ولكن عشية الهدنة الأولى في حرب ١٩٤٨م حاولت القوات الإسرائيلية ترسيخ جذور مواقعها في الجليل الغربي من خلال السيطرة على التلال الموازية للساحل وقد نجح لواء كرملي الإسرائيلي في احتلال البروة والمواقع المشرفة على القرية في ١١ حزيران ١٩٤٨م.

اعتمادا على شهود عيان أشار المؤرخ الفلسطيني نافذ نزال إلى أن السكان خافوا من هجوم إسرائيلي محتمل وقد قرروا قضاء لياليهم خارج القرية فلم يبق فيها أي شخص سوى ٤٥ شخصا تأهبوا للقتال واختبأوا في الكنيسة مع الخوري جبران. تلقي الأهالي هزيمة مولمة وموجعة وإنها قد كانت صدمة كبرى بالنسبة لهم لأنهم لم يرحلوا ويتشردوا عن أوطانهم بل فقدوا مصادر رزقهم في أوج الحصاد والحقول لم تحصد بعد. ولذلك أصبح الأهالي مصممين على استرداد قريتهم وقرروا الجلوس معا لدراسة طبيعة الخروج من هذه المآزق.

في صباح يوم ٢٣ حزيران اجتمع أكثر من مائتي رجل وامرأة من سكان البروة والقرى المجاورة واستعدوا استعدادا كاملا من أجل تحرير القرية من السلاسل الإسرائيلية، وكان من بينهم ٩٦ رجلا مدججا بالأسلحة، انضم إليهم فيما بعد عدد من المقاتلين. أما باقي الرجال فكانوا يحملون المعاول والبلطات والعصى والنساء كن يقمن بحمل المياه ويساعدن المصابين. ترأس مجموعة المقاتـــلين هذه أبو اسعاف من قرية شعب،الذي عينه المفتي قائدا في منطقة الجليل الغربي.

راجعين إلى القرية مر القاتلون بقوات جيش الانقاذ المرابطة في تل الليات فلطبوا من قائدها الانضمام إليهم لكنه رفض بغاية من الصراحة عن

قبول طلبهم وذلك بزعم أن أية أوامر لاتوجد بهذا الشأن، إلا أنه أمدهم ببعض الذخيرة. وتمكن المهاجمون من دحر الحامية الإسلامية وقوامها ١٢٠ شخصا فروا تاركين وراءهم ثلاث رشاشات صالحة وسبع حصادات الية إلى جانب أكياس القمح المحصود وحقائب مملوءة بالملابس وكميات من الطعام.

بعد اغتصاب القرية من أيدي المواطنين، دخلت البروة قوة متضمنة حوالي مائة رجل من قوات جيش الإنقاذ وطلبت من مقاتلي القرية مغادرتها بشكل عاجل لغرض الدفاع عنها بأسلحة ذات أحدث طراز، فانسحب المقاتلون وعادوا إلى عائلاتهم. وفي مطلع الصباح ٢٤ حزيران قام الجيش الإسرائيلي بحشد قوات من لواء كرملي ومن معسر سميرية وتمكن من احتلال القرية خلال ساعتين تقريبا. ولم تكن السيطرة التامة على القرية إلا بعد انتهاء المرحلة الأولى وبعد انتهاء الهدنة الاولى في اواسط تموز ١٩٤٨.

على إثر احتلال القرية والإعلان عنها منطقة عسكرية مغلقة وهدم معظم بيوتها ومصادرة أراضيها وملاحقة سكانها ورميهم عبر الحدود، تشرد أهالي القرية وتشتت شملهم وتمزق جمعهم في قرى، ومدن ودول عديدة. ورغم أن الكثيرين بقوا في فلسطين وظلوا لاجئين في وطنهم، إلا أنهم لم يحصلوا على سماحة بدخول قريتهم أو زراعة أراضيهم.

أهميتها: تعد البروة إحدى التلال الهامة التي تجعل مدينة عكا محل جذاب للسكان لما تتصف به من خصب الأراضي وجودة المناخ وموقع تتوجه إليه أنظار عامة الناس بغبطة.

يقع هذا التل جنوبي شرق عكا ويبعد عنها حوالي ٩ كيلو مترات على طريق صفد، ودلت الحفريات على وجود مقابر يرجع تاريخها إلى البرونز الأوسط والأول وعصر الجديد الأول والثاني إلى جانب العصر الهلنتسي. يمتاز هذا التل بأسوار وطوابق وبوابات وعديد من الأواني والآبار والأباريق

الخاصة للشرب المزينة بخطوط بيضاء تعود إلى العصور البرونز الأوسط. اندمجت بقايا الأسوار والمنازل والمخازن مع السوق الخارجي.

مع أن البروة حل بها الدمار الشامل وتعرضت لأحداث عظيمة ١٩٤٨ مازالت بسورها القديم ماثلة للعيان وتطرح أهمية قصوى وليست أقل قيمة وشأنا أدبا وفنا وتاريخا سياسيا يرجع سببه إلى أن كثيرا من الشخصيات التاريخية والأدبية المرموقة على مسرحها مَثل: تحتمس، سرجون، نختنصر، قمبيز، الإسكندر، انطوخيوس، بومبي ثم معاوية بن أبي سفيان وصلاح الدين الأيوبي، ريكاردوس، ابن طولون-نابليون-ابراهيم باشا، احمد الشقيري، سميرة قيصر عزام، غسان كنفان، خالد اليشطري، توفيق عبد الله فتاح السعدي، الشيخ صالح المحمد، والشيخ على بن حسن المغربي اليشطري الشاذلي.

نقدم هنا نبذة عن حياة بعض الشعراء بصورة نموذجية.

١- **أحمد الشقيري**: كان أحمد الشقيري أول بطل سياسي يدافع بقوة عن حزب الاستقلال الذي تأســس عام ١٩١٩م بهدف تقوية الروح المعنوية المترعرعة في قلوب شعبية، ولهذا الغرض قدم أوثق تعاون مع الأندية القائمة، كجمعية الشبان المسلمين والأندية الأرثوذكسية. لعب أحمد الشقيري دورا جذريا في المهرجان الذي أقامه هذاالحزب بمناسبة ذكرى صلاح الدين الأيوبي وموقعة حطين. انضم إلى فرقة النجادة وكان يضم عددا كبيرا من المثقــفين وحملة الشهادات العليا والثانوية، عمل محاميا في الأربعينات ونشطت جهوده في أواخر الأربعينات، واحتل طائفة من المناصب العليا العديدة وعمل مندوبا ساميا لدى هيئة الأمم المتحدة، كما رعى شؤون المملكة العربية السعودية في المحافل الدولية لبعض الوقت، وتم انتخابه أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية، وشغل هذا المنصب إلى أن قدم استقالته في

١٩٦٧/١٢/٢٤م، توفي في عمان في ١٩٨٠/٢/٢٥م ودفن في منطقة الغور حسب وصيته وذلك بموقع مقبرة أبي عبيدة بن أبي الجراح.

٢- **سميرة قيصر عزام:** ١٩٢٧-١٩٦٧م. كانت سميرة قيصر عزام نجمة أدبية فلسطينية ولدت في عكا، تلقت تعليمها الابتدائي في احدى مدارسها، ونزحت إلى لبنان عام ١٩٤٨م واعتمدت إلي عملها الأدبي. ففي بداية الأمر، توجهت إلى القصة القصيرة، وقد توزع نشاطها بين العمل الصحفي والإذاعي فتعاونت مع إذاعات بيروت والكويت وعمان، تركت مجموعة قصصية وراءها وفي عام ١٩٦٣، نالت جائزة القصة القصيرة التي أعلنت عنها جمعية أصدقاء الكتاب في بيروت.

٣- **غسان كنـــفاني:** ولد في عكا في نيسان ١٩٣٦، تنقلت به الأحوال قبيل النكبة في مناطق عديدة، قدم خدماته الدراسية لمدارس وكالة الغوث بدمشق عام ١٩٥٣، كانت له مهارة فائقة في فن الخط والرسم وكان له حس مرهف في الفن، اتخذ بيروت مقرا له منذ عام ١٩٦٠م وعمل في الصحافة. وله عدة مؤلفات، ومن مؤلفاته في الدواوين (رجال تحت الشمس، ما تبقى لكم) وفي القصة القصيرة (موت سرير رقم ٢، وأرض البرتقال الحزين، عالم ليس لنا)، وفي الدراسة الأدبية (الأدب الفلسطيني المقاوم ١٩٣٦ -١٩٣٩) ثم المقاومة ومعضلاتها. خاض كنفاني في معركة سياسية وعملية في مطلع شبابه، وقد اغتيل في الحازمية من ضواحي بيروت عن طريق عبوة ناسفة اطلقتها المخابرات الصهيونية في سيارته في ٨ تموز١٩٧٢م واستشهدت مع ابنة أخيه.

٤- توفيق العبد الله: كان رئيسا لبلدية عكا

٥- الشيخ أسعد الشقيري: أحد أعضاء مجلس المبعوثان

٦- الشيخ عبد الله الجزار: مفتي عكا

٧- عبد الفتاح السعدي: كان نائبا لعكا في مجلس المعبوثان

٨- الشيخ صالح المحمد

٩- الشيخ على بن حسن المغربي اليشطري الشاذلي. (٣٣)

ولد شاعر الانسان والحب والوطن الفلسطيني محمود درويش في قرية البروة التي دمرت معظمها في حرب ١٩٤٨م. خرج منها الشاعر وهو في السادسة من عمره حين اضطر إلى الهروب إلى لبنان هربا من الشراسة البالغة الإسرائيلية عقب النكبة ١٩٤٨م فراح يعدو مع أحد أقاربه ضائعا في الغابات فوجد نفسه أخيرا في جنوبي لبنان، وبعد تمضية سنة تقريبا تسلل مع عمه إلى فلسطين. درس العربية والإنكليزية والعبرية وحصل على منحة دراسية في موسكو عام ١٩٧٠م، فسافر إليها ولم يرجع بعد إنهاء الدراسة إلى فلسطين.

انضم محمود درويش إلى الحزب الشيوعي في إسرائيل. وبعد إنهاء مسيرته الدراسية أصبحت حياته عبارة عن كتابة الشعر والمقالات في الجرائد مثل "الاتحاد" والمجلات مثل "الجديد". كانت هاتان المجلتان تابعتان للحزب الشيوعي. كما اشترك في تحرير جريدة الفجر.

وضع محمود درويش في قفص الاتهام بقيام نشاطات معادية للممارسات الارهابية الصهيونية فطورد واعتقل خمس مرات ١٩٦١م و١٩٦٥م، و١٩٦٦م، و١٩٦٧م، و ١٩٦٩م، حتى هاجر إلى مصر وتوجه بعدها إلى لبنان حيث عمل في مؤسسات النشر والدراسات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية وقدم استقالة من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير احتجاجا على اتفاق أوسلو.

شغل درويش منصب رئيس رابطة الكتاب والصحفيين الفلسطينيين وحرر في مجلة الكرمل، وبذل مقدارا قليلا من حياته لزيارة أمه. وفي فترة قيامه هناك عرض بعض أعضاء الكنيست الإسرائيلي العرب واليهود اقتراحا بالسماح له بالبقاء في وطنه. وقد سمح بذلك.

ترك شاعر الوطن أمتعة شعرية ونثرية وراءه. من دواوينه "عصافير بلا أجنحة" ١٩٦٠، و"أوراق الزيتون"، حيفا ١٩٦٤م، و"عاشق من فلسطين"

١٩٦٦م، و"يوميات جرح فلسطيني"، و"آخر الليل" ١٩٦٧م، و"حبيبتي تنهض من نومها"، و"والكتابة على ضوء البندقية". جمعت هذه الأعمال الشعرية كاملة في "ديوان محمود درويش" ونشرتها دارالعودة ببيروت ١٩٧١م، ثم صدر له ديوان "أحبك أولا أحبك" ١٩٧٢م، و"تلك صورتها" ١٩٧٥م، و "أعراس" ١٩٧٦م. ثم جمعت هذه الأعمال وغيرها في مجلد آخر سمي "ديوان محمود درويش" نشرته دار العودة ١٩٧٧م.

صدر له بعد ذلك " النشيد الجسدي" ١٩٨٠م، "مديح الظل العالي" ١٩٨٢م"، هي أغنية.. هي أغنية " ١٩٨٥" ورد أقل" ١٩٨٥، حصار لمدائح البحر"، ١٩٨٦"، أرى ما أريد"، ١٩٩٠م"، أحد عشر كوكبا"، ١٩٩٣م وغيرها.

مؤلفاته: شيء عن الوطن-يوميات الحزن العادي-وداعا أيتها الحرب- وداعا أيها السلم- في وصف ٠حالتنا-الرسائل (بالاشتراك).

حصل محمود درويش على عدد من الجوائز منها:

جائزة لوتس عام ١٩٦٩

جائزة البحر المتوسط عام ١٩٨٠

درع الثورة الفلسطينية عام ١٩٨١

لوحة أوربا للشعر عام ١٩٨١

جائزة ابن سينا في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٢

جائزة لينين في ٠الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٣. (٣٤)

الهوامش

١.	تي. جي فريزر (١٩٩٥): "النزاع بين العرب وإسرائيل" (بالإنكليزية) ص ١٥٥
٢.	يوسف حداد: "*شؤون عربية*"، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١م – ذو الحجه ١٤٠١هـ ص ٢١٢ نقلا عن د. توما ، حبيبي، " جذور القضية الفلسطينية ص ٢٨٦
٣.	غسان كنفاني: "الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٦" ص ١٠
٤.	سالم حلمي: "الشعر الفلسطيني في الأرض المحتلة: الواقع والمستقبل، شؤون عربية، تشرين الأول ١٩٨١م، ١٤٠١هـ ص ٢١٤.
٥.	سليمان ايه خالد: "*فلسطين والشعر العربي الحديث*" (بالإنكليزية) ص ٤٦
٦.	المصدر نفسه ص ٤٦
٧.	المصدر نفسه ص ٤٧
٨.	المصدر نفسه ص ١٤
٩.	يوسف حداد: "شؤون عربية" تشرين الأول ١٩٨١ ص ٢٠٠
١٠.	سليمان ايه خالد: "فلسطين والشعر العربي الحديث" ص ١٤ .
١١.	نقل المصدر نفسه عن المراسلات الجارية بين يوليو ١٩١٥ ومارس ١٩١٦. لمزيد من الملومات راجع إلى معهد الشؤون الدولي، "بريطانيا العظمى وفلسطين (بالانكليزية)
١٢.	المصدر السابق
١٣.	سليمان ايه خالد : فلسطين والشعر العربي الحديث ص ١٤
١٤.	يوسف حداد: "الاتجاهات الوحدوية في فلسطين في عهد الانتداب

	البريطاني، شؤون عربية ١٩٨١م ص ٢١٢
١٥.	سليمان ايه خالد: "فلسطين والشعر العربي الحديث" ص ١٥- ١٤
١٦.	المصدر السابق
١٧.	الحاج أمين الحسيني: الحلقة الرابعة والأخيرة، حقائق عن قضية فلسطين، ملحق: تصريح بلفور
١٨.	المصدر السابق
١٩.	سليمان ايه خالد: "فلسطين والشعر العربي الحديث"ص ١٥
٢٠.	المصدر السابق ص ١٦
٢١.	حركة التحرير الوطني الفالسطيني "فتح" شؤون الأرض المحتلة، الأرض المحتلةن وقائع... وأحداث آب ١٩٨٧، العدد الثاني والعشرون- السنة الثالثة
٢٢.	أحداث الحائط المبكى، لمزيد من التفاصيل راجع إلى السيدة ارسكائن استيورت "فلسطين عرب (بالانكليزية) ص ٣٤- ١٢٤
٢٣.	المصدر نفسه
٢٤.	المصدر نفسه
٢٥.	سليمان ايه خالد: "فلسطين والشعر العربي الحديث" ص ١٦
٢٦.	المصدر نفسه
٢٧.	المصدر نفسه
٢٨.	www.FPNP.net
٢٩.	إن المعلومات الآتية المتضمنة الأوضاع الاجتماعية والعلمية معدة في ضوء تقرير نشرته المجلة "العالمية"، العدد ٢٠٣- صفر ١٤٢٨ هـ مارس ٢٠٠٧ ، السنة التاسعة عشرة ص ٣١- ٣٠
٣٠.	المصدر نفسه
٣١.	المعلومات عن الأوضاع الصحية متوفرة لدينا عن طريق المجلة "العالمية"، غرة كل شهر عربي، العدد ٢٠٣ – صفر ١٤٢٨هـ – مارس ٢٠٠٧ –

	السنة التاسعة وعشرة ص ٢٨
.٣٢	html story٦٦٧. http://www.palestineremembered.com/Acre/al-Birwa/
.٣٣	http://i-cias-com/e.o/akko.html Amazon.com
.٣٤	كنفاني غسان: "الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٦٨-١٩٤٨ ص ٩٧

الباب الثاني

مساهمات محمود درويش
في
مجال الأدب العربي الحديث

يحتوي الباب الأول على الأحداث السياسية والاجتماعية السائدة في فلسطين المحتلة خلال النصف الأول من القرن العشرين، وأما الآن فإنني في صدد البحث عن الآثار الناجمة عن الكارثة ١٩٤٨ المترتبة على خزانة أفكار الشعراء العرب ومسارات أدبية سارت من مطلع النصف الثاني من نفس القرن.

فمن ناحية، نجمت هذه الكارثة عن تقليص النسبة السكانية والبنية الاجتماعية الفلسطينية ومغادرة الغالبية العظمى من سكان المدن إلى البلدان المجاورة من ناحية أخرى، أسفرت عن النشأة الأدبية العربية الحديثة أيضا، كما قال غسان كنفاني عن ذلك الأمر:

"حين وقعت كارثة فلسطين عام ١٩٤٨ لم تخلف تغييرا جذريا في المجتمع العربي هناك من حيث العدد فقط، ولكنها أحدثت أيضا هزة جوهرية في التركيب الاجتماعي لعرب فلسطين المحتلة. أما سكان المدن فقد هجرت الغالبية العظمى منهم فلسطين إبان حرب ١٩٤٨ أو بعدها بقليل، وأحدث هذا الواقع اهتزازا صاخبا في جوهر المجتمع العربي هناك، ذلك أن المدن لم تكن فقط مركزا للقيادة السياسية ولكن أيضا، كما في معظم الأحوال، مركزا لقيادة الفكرية الأساسية". (١)

وفيما يتلعق بالناحية الثانية انه يقول في مكان آخر "إن الحرب النفسية والاقتصادية والسياسية التي تشنها السلطات الإسرائيلية على المثقف العربي كان لها الأثر الأكبر في بلورة الانتاج الأدبي العربي في فلسطين المحتلة على الصورة" التي سنراها في السطور الآتية. (٢)

يعتقد غسان كنفاني أن المقاومة المسلحة الضاربة جذورها وأطنابها عميقا في الأرض المحتلة اتخذت شكلا رائدا في العمل السياسي والعمل

الثقافي وقدمت نماذج مبكرة ذات اهمية قصوى كعلامة اساسية من علامت المسيرة النضالية العربية المعاصرة.

إنه يرى أيضا ان الثورات المندلعة في فلسطين المحتلة كانت بمثابة يقظة وصحوة أدبية بدأت في الظهور على سطح الأرض منذ العقد الثالث من قرننا العشرين. (٣)

يعبر الأديب الفلسطيني عن رأيه في الألفاظ التالية:

"وحفل التاريخ الفلسطيني، منذ الثلاثينات على الأقل، بمظاهر المقاومة الثقافية والمسلحة على السواء، واذا كانت الثورات المسلحة التي خاضعها شعب فلسطين قد انتجت أسماء من طراز عزالدين القسام مثلا، فان أدب المقاومة قد أنتج، قبل ذلك ومعه وبعده، اسماء من الطراز نفسه، مازال المواطن العربي يذكرها بكثير من الاعتزاز، ومن أبرزها ابراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود، وابوسلمي (عبد الكريم الكرمي) وغيرهم". (٤)

تعد الخمسينات والستينات عقدين حاسمين نشطت فيهما الحركة الأدبية وبرز جيل من شعراء الأرض المحتلة إلى سماء الشعر العربي في الستينات خاصة. كثفت الخمسينات حملتها الأدبية في عقب النكبة الأولى ١٩٤٨ فشهدت الستينات قفزة الأدب العربي من الغزل إلى الشعر العربي دفعة واحدة في عقب حزيران ١٩٦٧. وفي هذا السياق، يقول مطاع صفدي.

"والخمسينات عهد تاريخي حقيقي، انه البدء بالنكبة والرد على النكبة بذروة الوحدة. وأن الستينات عهد تاريخي حقيقي كذلك، أنه البدء بالنكبة الثانية في الانفصال، والوصول إلى النتائج الشاملة للنكبة الانفصالية، في هزيمة حزيران الشاملة. والشعر العربي الحديث واكب هذه الأحداث." (٥)

ويقول درويش نفسه:

"في الخمسنينات (من القرن العشرين) آمنا نحن العرب بإمكانية أن يكون الشعر سلاحا، وأن على القصيدة أن تكون واضحة مباشرة، على الشعر

الاهتمام بالاجتماعي، ولكن عليه الاعتناء بنفسه أيضا، بالجماليات.. آمنت أن افضل شيء في الحياة أن أكون شاعرا، ألآن أعرف عذابه، في كل مرة انهى فيها ديوانا، اشعر انه الأول والأخير".(٦)

يقول عز الدين المناصرة:

"لمع في السنوات الأخيرة وخصوصا بعد هزيمة ١٩٦٧ ثلاثة شعراء من الأرض المحتلة هم : محمود درويش- سميح القاسم- وتوفيق زياد. وقد اعتاد النقاد هذا الترتيب وأحيانا يلحقون بهم سالم جبران كألمع أربعة شعراء في الأرض المحتلة".(٧)

يقدم غسان كنفاني هنا نموذجا من أشعار الدرويش في غضون الستينات قائلا:

"سنرى في شعر الدرويش، الذي قاله في اواسط الستينات، ذلك المزج العميق، الهادئ، المتدفق بين المرأة والوطن ليجعل منهما معا قضية الحب الواحدة التي لا تنفصم".(٨)

محمود درويش أحد من أبناء المأساة في فلسطين، ولدوا في النار الملتهبة. فتربي وترعرع درويش مثلهم في دخان البارود الإسرائيلي والدبابات الإسرائيلية والرصاصات البندقية الصهيونية التي كانت تطلق فوق رؤوس العرب الأبرياء الذين يكادحون ويكافحون من أجل حرية وطنهم في حالكة السواد. كان هذا الأوان عام ١٩٤٨، وهو كان في نعومة أظفاره، وكان أيام طفولته عرضة لأنواع العدوان والطغيان الإسرائيلي.

يصور محمود دكروب صورة صادقة بريشة قلمه قائلا:

"أول شيء وعاه محمود درويش بحدة وعنف هو أصوات الرصاص، تطلق على الناس العرب في ليل أسود.. كان هذا عام ١٩٤٨، وكان عمره ست سنوات، ورأى نفسه مشردا، ورأى نفسه فاقدا طفولته ومعنى الطفولة، ورأى هذه الطفولة منذ البداية، توضع في النار، والمأساة تضع الطفل أمام

مسؤوليات رجل، تضعه في الرجولة ورأى أن مأساته "ولدت مع بداية مأساة شعب كامل"، وان طفولته أيضا، يقول محمود درويش "كانت ضحية عدوان".(٩)

بترت ذكريات درويش فجأة وهو في السادسة من عمره، حين اضطر إلى الهروب إلى لبنان هربا من تمرد إسرائيلي عقب النكبة عام ١٩٤٨.

إلا أنه انقطع عن قريته لفترة وجيزة لكنه ظل منشغلا بقضاياه، ففي السابعة من عمره تسلل مع عمه إلى فلسطين ليصدم بأرض خلاء كانت لسنوات عدة قريته وقرية أسلافه. ومن هنا جاءه اسم "لاجئ فلسطيني في فلسطين". في هذه الفترة، بدأ العمل السياسي محاولا خلق مناخ معاد للأعمال الارهابية الصهيونية وهو ما مكنه من التعرف عن كثب على معاناة شعبه. في هذه الفترة كذلك، بدأت ملكته الشعرية في النضج فبدأ يقرض شعره ويحمل أفكاره لم تطب للحكومة الإسرائيلية التي رأت فيه صوتا يجب ابعاده واسكاته وتمت اعتقالات عديدة أجبرته على الرحيل خارج فلسطين. بذلت الحكومة الإسرائيلية ما في وسعها من أجل تخفيض نبرته وصوته المرتفع من أفق الشعر العربي لكنه تمسك بوعى وصمود وصلابة ومتانة عميقة وربط جأشه بمواجهة العدوان المبين بقلمه وقصائده وذلك ليس بأسلحة مدمرة كما يظن عامة الناس.

إلى جانب محمود درويش كافح عشرات من الأدباء والشعراء العرب والمثـــقـــفين العربج على قدر الإمكان من أجل تحرير بلادهم من خلال شعرهم فأودعتهم دوريات من الشرطة الإسرائيلية السجون. كما يكتب غسان كنفاني في كتابه القيم:

" ومن بين اولئك اللذين سيقوا إلى السجن في حزيران ١٩٦٧ السادة: منصور كردوش، وصالح برانسي، وفخرى جدي، والشاعر حبيب قهوجي، والشاعر سميح القاسم، **والشاعر محمود درويش**، والشاعر سالم جبران،

والشاعر توفيق زياد، والمحامي والكاتب صبري جريس (مؤلف العرب في إسرائيل)، وعبد الحفيظ دراوشة، والأديب فرح نور سلمان، وعلى رافع، ومحمد خاص، وعلى عاشور، والطالب الجامعي خليل طعمه، ومحمد ريان، وزاهي كركبي، ومنعم جرجورة، ونصر المر، وجورج غريب، وفؤاد خوري، وغيرهم".(١٠)

اعتبر الشاعر المأساوي الهجوم الإسرائيلي على وطنه وشعبه وارضه هجوما شخصيا بسبب نفسه جزء لا يتجزأ من ترابه الذي رسخ حبه في أعماق قلبه. سكب الكاتب الموصوف هذه الحقيقة في قالبه.

"منذ تلك السنوات السوداء، والدامية، وجد محمود درويش نفسه يجابه العدوان، عندما جعله العدوان مشردا وسط البؤس والحرمان في جنوب لبنان، وعندما تسلل عائدا إلى فلسطين يجد أن قريته "البروة" قد دمرت، وبدأت تقام مكانها مستعمرة يهودية لا يعرف من أهلها أحد، وعندما أخذت سلطات إسرائيل تطارده في وطنه فلسطين، بتهمة أن "تسلل" إلى هذه الإسرائيل.. وعندما أخذ يشعر بأنه "لاجئ فلسطيني في فلسطين" ثم عندما أخذت السلطات تطارده، وتعتقله، وتفرض عليه الاقامات الجبرية. وحتى هذه الدقيقة، فان محمود درويش يجابه العدوان، كل يوم وكل دقيقة، وهو لا يجابه العدوان لمفهوم عام، يهاجمه بقلمه وقصائده، بل كاعتداء يومي على وطنه وشعبه وأرضه وجسده، وليس لهذا أي معنى رمزي، كأنه يحس الشاعر مثلا ان العدوان على وطنه وشعبه هو عدوان عليه شخصا، بل انه عدوان فعل يومي، يجابهه محمود درويش ورفاقه منذ عشرين عاما. ومنذ البداية كانت الوحدة العضوية بين الخاص والعام، الشخص والشعب، الإنسان والأرض، الشاعر والناس، الشعر والثورة." (١١)

تتجلى هذه الوحدة العضوية في القصائد التالية:

"نحن في حل من التذكار

فالكرمل فينا

وعلى أهدابنا عشب الجليل

لاتقولي: ليتنا نركض كالنهر إليها

لاتقولي:

نحن في لحم بلادي.. في فينا (١٢)

نرى في شعر هذا محمود درويش أن القضية الفلسطينية رانت على قلبه والناس استحوذوا على عقله وحب التراب بصم بصمة عميقة على أنسجة دماغه، ونرى أيضا في شعره انسجاما تاما بين الشاعر والارض والشجر والشهداء والثائرين.نجد شعره مفعما بروح ثورية ومدججا بسلاح مدمر يستخدمه الشاعر لمواجهة العدوان وجها لوجه. فيقول الشاعر...

لم نكن قبل حزيران كأفراخ الحمام

ولذا، لم يتــفــتت جنبا بين السلاسل

نحن، يا أختاه، من عشرين عام

نحن لانكتب أشعارا

ولكننا نقاتل(١٣)

لاينكر الشاعر عن كتابة الشعر بل يؤكد على اندماج الشعر بالثورة والثائر. ويصف شعره سلاحا قتاليا يلجأ إليه للخوض في المعركة ويصف أيضا .. لاحياة لأدبنا إلا إذا كان سلاحا لهذا الانسان وزادا له". (١٤)

وهكذا منذ مستهل حياته، أصبح هذا الطفل شرطة مسلحة وصار بطلا باسلا في معركة نضالية وروح ثورية وظل مقيدا ومعتادا على زنزانة السجن الصهيوني، ومضت لحظات سعيدة من طفولته في ظل السيوف والخناجر.

يمكننا فهم هذه الطبيعة من قصيدة "صلاة أخيرة"

"يخيل لي أن عمرى قصير

واني على الأرض سائح

يخيل لي أن خنجر غدر

سيحفر ظهري

فتكتب إحدى الجرائد:

كان يجاهد" (١٥)

لكن هذه اللحظة الشعرية الطالعة من الأحداث اليومية التي يعاني محمود درويش تتحول إلى مسرح الصراع الدائم. يصور الشاعر نفسه بغاية من الصراحة هذا المشهد المريع في حديث صحفي له.

"الكثيرون من أصدقائي يتألمون من أجلي. هذه الملاحقات. الاعتقالات. وأمر الاقامة الجبرية التي تحدد حرية تجولي في وطني. أصبحت جزءا من حياتي اليومية. ولكنني أنظر إليها باستهتار يكاد يكون خبيثا. لست متوترا، ولست مندهشا. أجلس في غرفتي، كل مساء، ويطربني أن أرتبط بالشمس، لأني أمنع من مغادرة البيت بعد غروب الشمس. منحوني شرفا كبيرا عندما ربطوا خطواتي بالشمس.أجلس في الغرفة، أقرأ، أسمع موسيقي، وأنتظر البوليس. وفي الساعة الرابعة بعد ظهر لي يوم أثبت وجودي في محطة الشرطة بابتسامة حقيقية غير لئيمة دائما. وأنا أنظر إلى ذلك برؤية شعرية: لقد تقاسمنا اليوم لهم الليل، والنهار لي".(١٦)

لقد غنى شاعر الارض المحتلة مشاكل البلاد الفلسطينية والمعارك والصدامات التي حفلت بها الساحة العربية خلال السنوات الماضية ليس ذلك فقط بل إن شعره يطل على تلك الأحداث من مواقع أكثر أملا وصمودا. نستطيع أن نرى كيف أن عجلة تطور شعر محمود درويش تتماشى مع الزمن والمعركة. ونجد في آراءه عن الشعر بأنها عبارة عن الاندماج الكامل بين الشعر والشاعر والناس والأشياء بين الشعر والثورة ومهماتها:

يقول درويش نفسه لدى حديث مع المجلة "لطريق"

"حين أنظر إلى الأشياء، لا التصق بها فقط، وانما اتوغل فيها أو هي تتوغل في.. كأن وعي ووجداني يدخلان في معادلة واحدة.. ولعل التزامي هنا لم يعد مبدأ أو وجهة نظر أو بطريقة، وانما صار بيضا في الدم . (١٧)

لقد كرس شاعر الشعب والقضية الفلسطينية مقالاته وأحاديثه وأعماله الشعرية لبلاده وأبناءها. يعي شاعر القضية بقضية الوطن ومشاكل أبناءه بامعان ويمارس حلولا لها. ولم يبتعد نفسه من جسم الأمة العربية حتى ان وجوده في السجن لم يبعده عن قضية شعبه بل يشده دوما شوق وحنين مفعمين بالمحبة والاخلاص والوفاء ولوطنه الأم. ويشده ذكرى إلى اشجار الزيتون والليمون، إلى الينابيع ، إلى شاطئ البحر ، إلى الوديان والشواطئ، شوق وحنين لا حدود له. ولا يطفئه شيء سوى العودة إلى أرض الوطن. تشد قلبه ذكريات وطنية بنفسها بشدة داخل السجن.

بدأ محمود درويش مسيرته الشعرية في الستينات، ولا يمكن الحديث عن تطور الشعر الفلسطيني دون الحديث عن محمو درويش بالذات، وقد جنى محمود درويش فائدة كبرى من ثورة الستينات والسبعينات في عالم الصورة الشعرية وقد دفعت بخياله الخصب إلى حرية لم يعهدها من قبل، فصورته في العادة مضيئة لا تنسى، ومن الصعب نسبة محمود درويش إلى هذه الفترة أو تلك بحيث أصبح محمود درويش جزء لا ينفك من الحركة الشعرية الحديثة في العالم العربي. لقد رسخ محمود درويش إضافة إلى مجزاته الثقافية سمعة الفلسطينيين بصفتهم شعبا أسهم بإبداعه وعطائه الفكري في الحياة الثقافية العالمية في العصر الحديث.

ويشار إلى أن "تجربة درويش لا تجاريها تجربة شعرية عربية معاصرة، على مستوى عمق الأسئلة التي تبدأ وطنية وتنتهي بابعاد إنسانية شديدة الارتباط بمصير الإنسان في كل زمان ومكان. تمتد من البروة إلى عواصم عربية وعالمية: القاهرة وبيروت وتونس فباريس وتتواصل في عمان،

مرورا بديوان " أوراق الزيتون، و عاشق من فلسطين، أحبك أو لا أحبك، محاولة رقم ٧، و مديح الظل العالي، وحصار لمدائح البحر، وعابرون في اكلام عابر وبدأت منذ منتصف الثمانينات رحلة جديدة مع هي أغنية، ورد أقل، و مأساة النجس، ملهاة الفضة، ورحلة مختلفة مع لماذا تركت الحصان وحيدا؟، جددت نفسها هذه التجربة مع الـــ جدارية، لا تعتذر عما فعلت، حالة حصار، وأخيرا، اكزهر اللوزأو أبعد، إضافة جديدة هي محطة جديدة تضاف إلى محطات الشاعر وتجربته ومجاميعه الاثنين والعشرين".(١٨)

يجدر الإشارة إلى أفكار رئيسية عما يتوفر لدينا من مؤلفات درويش نثرية ومجموعاته الشعرية أمثال "ذاكرة للنسيان" "عابرون في كلام عابر"، "شيء عن الوطن" "عصافير بلا أجنحة"، "عاشق من فلسطين"، "أوراق الزيتون" "قصيدة بيروت"، "قصيدة مديح الظل العالي"، قصيدة "جدارية"، "حالة حصار"، "أحد عشركوكبا" ، "سرير الغريبة"، لماذا تركت الحصان وحيدا؟، كزهر اللوز أو بعد وما إلى ذلك. هذه المجموعات تعبر عن قصة مأساوية وماجريات مؤلمة عاشها محمود درويش في داخل البلاد وخارجها وكذلك يفصح أيضا عن آراءه الجاثمة بقضية فلسطين.

مساهماته في مجال النثر العربي الحديث

ذاكرة للنسيان: كتب محمود درويش رائعته النثرية "ذاكرة للنسيان" خلال ٩٠ يوما في باريس سنة ١٩٨٥، وهي أوديسا سيرة ذاتية على شكل يوميات بيروتية تجرى خلال يوم واحد من القصف الإسرائيلي الثقيل في السادس من آب ١٩٨٢ــ هيروشيما.

يبدو درويش في هذه الرائعة غامضا بشأن حادثة "الزواج" : يقال لي كنت متزوجا ، لكنني لا أتذكر التجربة. قابل رنا قباني (ابنة أخ الشاعر السوري نزار قباني) في واشنطن سنة ١٩٧٧ فتزوجا " لثلاثة أعوام أو أربعة،

غير إنها تركت لتحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كيمبردج وكان مستحيلا الاستمرار. وتزوج لنحو عام في منتصف ثمانينات القرن العشرين مترجمة مصرية، حياة ألهيني، يقول: "لم نصب بأية جراح انفصلنا بسلام، لم أتزوج مرة ثالثة، ولن أتزوج إنني مدمن على الوحدة.. لم أشا أبدا أن يكون لي أولاد، وقد أكون خائفا من المسؤولية مما احتاجه استقرار أكثر، أغيررأي أمكنتي، أساليب كتابتي، الشعر محور حياتي، ما يساعد شعري افعله، وما يضره أتجنبه".(١٩)

"**عابرون في كلام عابر**": هذه القصيدة الطالعة في مطلع الانتفاضة المستمرة من ١٩٨٧ــ ١٩٩٣ مثال لافت للنظر وعبارة عن أوضاع مشبوهة سادت عليها روح الانتفاضة سيادة تامة. يمثلها الشاعر محمود درويش كمرآة صادقة تعكس فيها جميع جوانب المجتمع الإسرائيلي والفلسطيني على حد سواء. يعتقد أمي ايلاد بوسكيلا، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها حاليا بكلية البيت البرل بدولة إسرائيل أن درويش المولود في إسرائيل وعاش هناك قسطا كبيرا من حياته لا مثيل له ولا نظير له في تصوير المجتمع الإسرائيلي والفلسطيني وذلك لأن جسده كان مركبا ومزيجا من تراب البلدين.

يرى درويش أن قصيدته لا تعكس على صوت فردي وشخصي فقط بل لها انعكاس على صوت جماعي، وتمثل صورة الناس الآخرين والذين قضوا معظم حياتهم مع المجتمعات السياسية والثــقافية المتورطة والمضلوعة في الصراع مع بعضها البعض.

يقول كاتب الكتاب "الأدب الفلسطيني الحديث وثقافته" بأنني لا أريد الخوض في معركة بحثية غيرمجدية عما يريد الشاعر بل أريد تفقد الميزات التي يتسم بها الإسرائيليون واليهود كما تقدمت هذه القصيدة. تتجلى وجهة نظر الشاعر عن عنوان القصيدة "عابرون في كلام عابر". يؤكد العنوان على أن المجتمع الإسرائيلي لا بقاء له ولا قرار له ولا دوام له، ومثل هذا الكيان يشهد

سقوطا سريعا مع مرور الزمن لأن دعائمه لا تقوم إلا على اساس الطاقة والتكنولوجيا اللتان تعتبران ظلالين زائلين. وفي غضون ذلك، يشكل العرب جزءا من منطقة طبيعة- الأرض الفلسطينية-. تؤكد القصيدة على أن المجتمع الإسرائيلي في مرحلة انتقالية دائمة في كل زمان ومكان. إن الألفاظ "عابرون في كلام عابر" لا تفتح بابا جديدا من القصيدة بل تعرف كل من أربع مقطوعات وتخدم كلحن رئيسي. فبالتالي، يمثل الشاعر كيانا اسرائيليا متوجها نحو مرحلة انتقالية ولا يعرف وقوفه في محطة واحدة". (٢٠)

يدرك درويش خطورة أبعاد الفكرة الجماعية الفلسطينية في قصيدة تتكرر فيها ذكرى إقامة مؤقتة للإسرائيليين على الأرض الفلسطينية وبالعكس، يلتزم الفلسطينيون ويلتصقون بأراضيهم. وكما يرى درويش أن هذه الأرض أرض موهوبة لصالح ابناء فلسطين ولذا يتوصل إلى هذه الحقيقة أن الشعب الإسرائيلي سيكون أبدا ملتزما بهذه الأرض المباركة أو أبناءها، وسيكون غير متمسك بحياتهم أم أمواتهم.

Live where you like, but not among us

The time has come to leave

And die wherever you like, but not among us

...And get out of our land

نرى نفس المعنى في مكان آخر

"عابرون في كلام عابر" التي كتبها في بداية الانتفاضة الأولى ضد الاحتلال العسكري التي استمرت من ١٩٨٧- ١٩٩٣ كتب يقول:

آن أن تنصرفوا وتموتوا أينما شئتم

ولكن لا تقيموا بيننا

آن أن تنصرفوا وتموتوا أينما شئتم

ولكن لا تموتوا بيننا".(٢١)

يلاحظ درويش مدى التصاق الفلسطينيين بأراضيهم وفقدان العلاقة اليهودية بمنطقة وطبيعتها أيضا تكشف صورة اليهود المتجولين من مكان إلى آخر والذين يمسكون زمام الأراضي باستخدام القوة والأسلحة. يعارض هذا الوصف بصورة تامة مع الفلسطينيين غير المدفوعين بقوة بل إنهم متماسكون بأراضيهم. ولا غرابة فيه أنهم يعيشون أياما مستقبلية كما لايزال يعيشون منذ أيام سابقة حتى الآن. (٢٢)

امتلكت هذه القصائد مساحة قوية من التأثير على كل الأوساط حتى قد أثارت نقاشا حادا داخل الكنيست الإسرائيلي. كما تقول جريدة "الغد".

"بلغت خطورة درويش في القصيدة والثقافة والأثر إلى حد دفع الكنيست الإسرائيلي إلى نقاش حاد لقصيدته الإشكالية "عابرون في كلام عابر" التي فتحت باب التأويل على مصراعيه وأثارت زوابع استمرت طويلا كشأن شعر درويش الجديد خصوصا. ولعل هذه السمة هي ما جعلت كلمة درويش أمس كأنها ترد على من تطرقوا للبعد الجديد في أشعاره لا سيما أولئك اللذين اتهموه بالابتعاد عن المقاومة. لقد تخليت عن الشعر السياسي المباشر محدود الدلالات من دون أن أتخلى من مفهوم المقاومة الجمالية بمفهومها الواسع". (٢٣)

يقول درويش نفسه:

"هذه القصيدة لم تكتب كقصيدة هي قصيدة كتبت بدافع من الغضب اللامحدود عندما شاهدت في التلفزيون الفرنسي كيف يقوم جنود اسرائيليون بتحطيم عظام فتية فلسطينيين بالحجارة. هذه أشهر صورة في العالم، وهي ترمز إلى ما نتعرض له من قمع. كتبت ذلك النص كاحتجاج، كما لوكانت حجرا، لكنها لم توجه ضد اليهود الإسرائيليين إنها ضد المحتلين. هذه قصيدة انتفاضة وهي لا تعكس صوتي الخاص بل هي الصوت الجماعي، بشعب غاضب ومقاوم للاحتلال، ومن الطبيعي أن يطالب المحتل بالإنصراف".(٢٤)

لقد مازالت هذه القصيدة موضوعا للنقاش باعتبار أنها مدرجة في قائمة الأعمال الشعرية أم في المؤلفات النثرية؟ يتناول الدكتور عادل الأسطة، أستاذ الأدب في كلية الآداب بجامعة النجاح الوطنية هذا الموضوع ببساطة. يقول الدكتور أن درويش يقتطع أجزاء من جسده الشعري فخلص هذه القصيدة من أعماله الشعرية ويعود سببها إلى أنه رأى فيها حماقات شعرية. لقد كان الشاعر تخليه عن مجموعته الأول "عصافير بلا أجنحة (١٩٦٠) لأسباب فنية جمالية وأخذ في فترة لاحقة يخلص من القصائد التي تكون فيها للشعار السياسي حضور بارز وهذا ما يقوله بيضون ونشرت في العدد الثالث من مجلة "المشارف" الصادرة في حيفا في تشرين الأول ام ١٩٩٥. يقول درويش نفسه.

"ليس للشاعر أن يقدم برامج سياسية للقارئ. وهذا التمييز يسمح لي بإعادة النظر في قصائد كتبتها وقصائد اكتبها الآن. باعتبار أنها قصائد كاملة بحثا عما اسميه الخلاص الجمالي من الأزمة التاريخية المعاصرة. "(٢٥)

ويقول درويش في مكان آخر " لم أدرج عابرون في كلام عابر" في مجموعة شعرية لحرصي كما قلت دائما على تخليص الشعر مما ليس شعرا، أعن مما ليس في صلب العملية الشعرية. وتمييز النص الشعري مما يرسم له من وظائف اجتماعية، أي تخليص الشعر من السياسة المباشرة، دون أن ننسى أن ليس في الوسع قراءة النص الشعري، بشكل عام، من دون الرجوع إلى مستوى سياسي، فهو مستوى ادافع عنه ولا أعتذر منه". (٢٦)

وكلام درويش هذا صحيح وغير صحيح. صحيح حين يقرأ "عابرون في كلام عابر" معزول عن بقية شعره، وحين ينظر أيضا في الأسطر الشعرية المقتبسة في بداية هذه المقالة، وهي أنا أكتب شعرا، أي أموت الآن، فلتذهب أصول الشعر ليتضح الخنجر ولينشكف الرمز: الجماهير هي الطائر والأنظمة الآن تسمى قتلة.

وغير صحيح حين يمعن المرأ النظر في الأعمال الكاملة التي أشرف الشارع على طباعتها، وصدرت في طبعاتها الأخيرة، ومن يقارن "عابرون في كلام عابر" بقصيدة بيروت يلحظ أن المستوى السياسي في قصيدة بيروت ذو حضور لافت للنظر، حضور يفوق الحضور السياسي في عابرون في كلام عابر فهل هو الدافع إلى حذف عابرون من مجموعة شعرية واختار عنوانها عنوانا له. ذلك السؤال الذي يثار باستمرار ويقدم درويش اجابات توضح عدم إدراجه في الأعمال الكاملة. (٢٧)

أقلقت هذه القصيدة قارئيها الإسرائيليين الذين اعتبروها دعوة إلى دمار اليهود.

آن أن تنصرفوا وتموتوا أينما شئتم
ولكن لا تقيموا بيننا
آن أن تنصرفوا وتموتوا أينما شئتم
ولكن لا تموتوا بيننا".

اعترف درويش نفسه بإن هذه القصيدة مثيرة للنعرات والهتافات. (٢٨)

شيء عن الوطن: في هذا الكتاب يفيض الشاعر محمود درويش في عواطف حسية وفكرية ونفسية تدعو الطبيعة إلى التصاق بأشكال وطنية مألوفة أم غير مألوفة وتدعو أيضا الإنسان إلى التفاعل الثنائي . يحاول درويش فيه ربط بين الطبيعة والإنسان الفلسطيني رباطا روحيا يعبر عن همومه ويعي بأن الطبيعة ناطقة عن أفكار مخلية في ذهنه وهي متميزة بالنسبة للشاعر جنبا إلى جنب فشجرة الزيتون والبيدر والبحر والحجر والقمر والكرم وغير ذلك من مظاهر الطبيعة والبيئة الفلسطينية جبلت في دم الإنسان ذاته. فالأرض الفلسطينية تلعب دورا كبيرا في التحام الشعرالفلسطيني بها وهذا ما عناه درويش بمناظر طبيعية. يقـــــاوم الشاعـــــر الألم والاضطهاد ومحاولات طمس الكيان والكرامة القومية والإنسانية.(٢٩)

"لم يفارقه شيء عن الوطن حتى لأية ثانية في سجنه وذلك لأنه يعاني من معاناة شديدة لأجل وطنه، ويصرخ لأجل وطنه ويدافع عن حقوق وطنه، ويكافح ببسالة لأجل وطنه ، ويرفع رأية النضال لأجل وطنه، وينظم الشعر لأجل وطنه و لايزال راسفا في قيود حب وطنه حتى ينطق لسانه تلقائيا " وحتى لو تحول هذا الوطن الصغير كله إلى سجن فسنبقى على حبه لأنه وطننا. وان من صار سجنه وطنا أو وطنه سجنا لخير ممن يجعل الاحتلال وطنا له ".(٣٠)

مساهماته في مجال الشعر العربي الحديث

عصافير بلا أجنحة: نشر محمود درويش أول ديوانه هذا من حيفا عام ١٩٦٠م ذاق فيه النصف الثاني من القرن العشرين ذوق الحب والعذاب والكفاح والثورة والألم و عالج الشاعر فيه قضايا عالمية فيما بينها ثورات أفريقية وجزائرية ويمنية. ونرى معظم قصائده باحثة عن الثورات العالمية . " يقول درويش نفسه عن موضوعه "هذه القصائد تقدس الحرية.. وتقبل الشهداء.. وتغني على شباك حبيبتي.. وتبكي مع شريد ضائع.. "(٣١)

أعرب فيه الشاعر المأساوي عن موقفه بشأن ثورات أفريقية كما يقول أحد من رفاقه: "بهذا المجال يجدر بنا أن نسجل موقفا لمحمود درويش الذي كان ديوانه الأول "عصافير بلا أجنحة" في معظمه،غناء لثورات أفريقيا، والذي غنى لثورات العالم بإخلاص وعمق وتلقائية تبعث على الإعجاب والتقديروالذي – أيضا– قدم فيما أرى أجود ورثاء عربي للشاعر الأسباني لوركا، يقول، مع ذلك كله ينظر محمود درويش نظرة واعية للمسألة كلها.(٣٢)

أوراق الزيتون:

حقق محمود درويش ديوانه الثاني أوراق الزيتون عام ١٩٦٤م. لعب هذا الديوان دورا جذريا في بلوغه إلى أوج الشهرة كشاعر مقاومة، عندما كان

في الثانية والعشرين من عمره كتب أول قصيدة من الديوان "أوراق الزيتون ١٩٦٤" "بطاقة هوية" التي يخاطب فيها شرطيا إسرائيليا بصيغة الأمر سجل أنا عربي.

سجل أنا عربي
انا اسم بلا لقب
صور في بلاد كل ما فيها
يعيش بفورة الغضب
جذوري...
قبل ميلاد الزمان رست
وقبل تفتح الحقب
وقبل السرو والزيتون
.. وقبل ترعرع العشب
أبي... من أسرة المحراث
لا من سادة نجب!
وجدي كان فلاحا(٣٣)

في هذه الحوارية لا نسمع فيها صوتا واحدا وهو صوت الشاعر الذي قد أصبح مغروسا في نفسه وصار جوابا بالسؤال يأتي بصيغة الأمر (سجل أنا عربي)، ويتبنى فيها الشاعر موقفا ثابتا تجاه هويته عربية وشخصية فلسطينية وينادي حبه وحنينه من خلال انتماءه لأسرة فلاحية تشق الأرض بالمحراث وتنم عن ذهنية ثرية وتحظى بروابط أرضية قوية. وأما اسم بلا لقب فهو يشير إلى موقف الشاعر إلى نص وكل ما في القصيدة والألفاظ الأخرى مثل جذور، سرو وزيتون هي رمز للوطن مع أن شجرة الزيتون يزرعها صاحب الأرض والسرو هذه النبتة التي تمتد جذورها افقيا وبالعكس شجرة الزيتون تمتد جذورها عاموديا.

يريد الشاعر أن يقول إنه لايبقى على الأرض إلا كل شيء أصيل له نسبة إلى الأرض وأصحابها أصلا. وإن كنا نجد أن الأرض تتـــقبل كل شيء وافد أو غير وافد لكن البقاء والاعتناء دائما للرمز (الزيتون).

يصدق الدكتور أبو حاقة أن "كيف يربط محمود درويش واضح بين الأرض وبين الهوية، هذه الهوية التي لها شأن في شعره، فلقد أكدها في هذا الشعر أكثر من مرة، وأكدها أكثر من كل مرة في قصيدته الموسومة "بطاقة هوية" التي هي من أشهر قصائده في الالتزام القومي".

سجل!

أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألف

وأطفالي ثمانية

وتاسعهم.. سيأتي بعد صيف

... الخ(٣٤)

عاشق من فلسطين: كتب الشاعرالكبير محمود درويش هذا الديوان في زنزانة السجن في النصف الأول من عام ١٩٦٦. وإنه لعب أيضا دورا مماثلا في وصوله إلى خريطة العالم العربي كشاعر مقاومة وإنه ليس ترجمة عن مشاعر مترعرعة في قلوب أبناء فلسطين فقط بل عبارة عن علاقة الرجل بإمرأة وعلاقته بوطنه والعلاقة بين الشخص والأرض، بين العلاقة الفردية والعلاقة مع الوطن، بين الشخص والشعب...

نفس الشيء يتجلى في النص الآتي:

"في السجن، كما يبدو، كتب الدرويش،"عاشق من فلسطين" وهي مجموعة من القصائد ينـــتظمها خط واحد: إنه ليس تصعيدا عاطفيا مشحونا للعلاقة مع الوطن فقط ، بل هو دمج كلي في القيم التي ظل الشعراء يعتبرونها موزعة – بتساوما – بين علاقة الرجل بأية امرأة وعلاقته بوطنه".(٣٥)

ان الحبيبة ، في "عاشق من فلسطين" تضحى في القصيدة شفافة إلى حد كبير ويضحى جمالها هو أيضا ملخصا في كلمة ساحرة: "فلسطينية" .. وتبدو هذه الكلمة أكثر من كافية:

" .. واقسم:

من رموش العين سوف أخبط منديلا

... الخ (٣٦)

يعبر الشاعر عن حبه تجاه حبيبته بالسطور الآتية:

فلسطينية الكلمات والصمت

فلسطينية الصوت

فلسطينية الميلاد والموت (٣٧)

يعود درويش إلى عاشق من فلسطين ليقدم تفسيرا رائعا للمرحة الأولى من شعر شباب الأرض المحتلة العرب الذين لم يدخروا جهدهم في تجسيد الغزل بعد النكبة مباشرة، وليس بإمكان الدرويش أن يأتي بحصيلة إلى هذا المستوى الفني إلا بعد أن ضربت التجربة أطنابها ودخلت المأساة في صميم القلب فنالت رواجا عظيما وقبولا كبيرا. ظهرت هذه الحياة كلها بصورة متلاحمة، يومية، ذاتية، وعامة في آن واحد. (٣٨)

إن جميع الأنواع من الشعر ولا سيما الشعر الفلسطيني عاطفية لأن شعراء فلسطين يمثلون مرآة صافية لعيشة عاشوها تحت الاحتلال الغاشم وينظرون إلى فقدان أراضيهم بعين حسرتهم ويندبون عليها وينوحون عليها ويقصون قصة تحمل عبارة الأسف والألم والحزن. وعلى رأسهم محمود درويش معروف لدينا وقصائده معروفة تحية وتقديرا للمقاومة الفلسطينية.

محمود درويش هو من الأعلام الأدبية الحديثة تناول العالم العربي اليد باليد لأنه قد رفع صوتا دائما لصالح أبناء فلسطين، وينعكس ظلال قصائده على صراع كافحه درويش في ظلال عيشة الاحتلال خلال زمنه.

من بداية شعره إلى آخره يفصح درويش عواطف مليئة بدواعي الحب الوطني وألم الاحتلال والأمل الأبدي ويطمع حرصه دائم تجاه وطنه، وكل ذلك يتجلى من قصيدته "عاشق من فلسطين ١٩٦٦".(٣٩)

"قصيدة بيروت":

لقد كتب الشاعر هذه القصيدة في ظروف مشبوهة سائدة في بيروت في مطلع الثمانينات. هذه القصيدة عبارة عن حدث عاشه لحظة كتابته وكان شاهدا عليه. كانت بيروت تدمر، وكانت الطائرات الإسرائيلية تقصفها بالقنابل الفراغية، و كان هذا أيضا أمام عدسات التصوي ويكاد أن يموت الشاعر في ظل هذه الأوضاع السوداء. لقد تطابق الزمنان الكتابي والشعري. يقصد الشاعر هنا الزمن المكتوب عنه في النص. أي زمن الأحداث- وقد أشار الشاعر إليه حيث أن زمن كتابة الشعر كان يتزامن وزمن الموت والدمار" وأنا أكتب شعرا: أي أموت الآن". (٤٠)

يشعر الشاعر بأنه قد يموت، الآن، بانفجار أو قذيفة أو قنابل فراغية تدمر بيروت.

تنص العبارة التالية على هذا الحدث الهام لدى كتابة "قصيدة بيروت".

"شهد زمن الكتابة الأولى الحرب الأولى الأهلية في لبنان. وكان الشاعر هناك في بيروت، قريبا من الفدائي الذي يقاتل، وكانت الأنظمة العربية صامتة على ما يجري. أما الشاعر الذي لم يكن يحمل السلاح، ولم يكن قادرا على إيقاف المجازر، فلم يقل إلا على كتابة الشعر، وانجاز هذا أمام وقد تكون ثقافته محدودة، فليس أمام الشاعر إلا أن يكتب شعرا واضحا يقول فيه الحقيقة على الفدائي بترداده يواصل الدفاع والمقاومة، وهذا ما لاينجزه الشعر الرمزي، ومن هنا صرح الشاعر فلتذهب أصول الشعر ولينكشف الرمز. ولم يكن أمام الشاعر في حينه وهي في بيروت، إلا الانحياز للثورة وقول الحقيقة كما تبدت له. ولم يكن الزمن الذي أعاد الشاعر فيه النظر في القصيدة مشابها

للزمن الأول، ولم يكن في حالة مواجهة ساخنة تدفعه إلى قول ما قال يوم كانت الثورة تحاصر وبيروت تدمر ومخيم تل الزعتر بياد أمام سمع الدنيا وبصرها".(٤١)

"قصيدة مديح الظل العالي":

تتحدث هذه القصيدة عن خروج الفلسطينيين من بيروت إثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢م وتتناول أيضا كثيرا من مآسي المقاومة وانطباعات الشاعر الذي شاهد بنفسه حوادث السقوط وتعرض لها كثيرون من اصدقاءه ورفقاء كفاحه حتى سقط ماجد أبو شرار في روما ١٩٨٢. وخلال مؤتمر عالمي وقع الموساد المتفجرات تحت سرير ماجد أبو شرار وبعد موته كتب درويش في إحدى قصائده:

أصدقائي لا تموتوا!

اتخذ محمود بيروت محطة ارتكازه حيث أصبحت حياته زاخرة بالنشاط الأدبي والثـقافي. وكانت حياته تعيش هناك قصفا وحشيا ورصاصا مدمرا وإنه كان غير ناضج لكنه كان معروفا بين المقاتلين.

هذه العملية الفدائية أثرت في درويش أثرا عميقا على مستويات عديدة:

فعلى المستوى النفسي استشاط غضبا لأول مرة فنظم قصيدته الطويلة "مديح الظل العالي" واصفا إياها قصيدة تسجيلية تصور صورة صادقة عن المأساة الأليمة التي يصيب بها العالم العربي بل الإنسانية كلها. (٤٢)

"كتب درويش قصيدتين هامتين للغاية خلال الفترة الثالثة بنهاية عام ١٩٨٢. شنت إسرائيل هجوما عنيفا على لبنان بقيادة إرييل شارون. وهما قصيدة بيروت وقصيدة مديح الظل العالي. تنظم هاتان القصيدتان (قصيدة بيروت وقصيدة مديح الظل العالي) قصائد قصصية على شكل أساس. وأما بالنسبة بالفكرة فهي مقاومة فلسطينية بطولية ضد الحصار الإسرائيلي للبنان خلال الصيف عام ١٩٨٢م. " (٤٣)

قصيدة "جداية ٢٠٠٠" :

تحتوي هذه القصيدة على قصيدة واحدة فقط ويستقرفي ظلال إحساسه محمود درويش بتجربة الموت ويفكر بخطورة في مرارتها كرجل مريض يكاد أن يموت ويخاف من موته ويأخذ إحساس الشاعر بطمس معالم حضارية تعرضت لانتفاضة الأقصى.

قصيدة "جدارية ٢٠٠٠" هي ناطقة بلسان درويشي عما جرى مع طلف مسيحي صغير وذكي القلب وهو محمد الدرة. اتخذت الأفواج الإسرائيلية هذا الطفل أغراضها وأطلقت عليه النار والرصاص فمات في ذراعي أبيه الكريم.

مشيرا إلى أشعار ذات رموز توراتية مسيحية ويهودية قرضها لدى موت هذا الطفل، يؤكد الشاعر في القصيدة على أنه يمتاز بهوية مزيجة من مقومات حضارية ماضية وحالية ولأشعاره صيغتان تحتضنان بالتراث القديم والجديد معا.

ينفي الشاعر عن النظام الإقطاعي والسجلات التاريخية والربوبية الأبوية كما يفعل الإسرائيليون ويدعون في ساحة الحرب، لا يتخذ الشاعر أيامه السالفة أساسا له. كما تذهب مقطوعة من الجريدة العربية في تأ ئيدها:

"في قصيدة "جدارية ٢٠٠٠" يمعن رجل مريض جدا التفكير بالموت وبفناء الحضارات في عز الإنتفاضة الأقصى، وفي هذه الجدارية يظهر محمد الدرة، الطفل الذي يبلغ عمره من اثني عشر عاما ومن أطلق الجنود الإسرائيليون النار عليه ومات بين ذراعي والده كمسيح صغير، ويؤكد درويش الذي يتضمن شعره رمزية توراتية مسيحية ويهودية على موروث له مزدوج "ليست لدي هوية ثقافية عربية خالصة، أنا نتيجة مزيج حضارات ماضي فلسطين، لا أحتكر التاريخ والذاكرة والرب، كما يريد الإسرائيليون أن يفعلوا، إنهم يضعون الماضي في ساحة المعركة" أما وقد غذا أكثر حكمة وأكبر، فما كان عليه حين نهض لأول مرة لمواجهة التحدي، يقول: لا أحب أن نتقاتل

على الماضي، ولندع كل واحد يروي سرده كما يشاء، ولندع السردين يجريان حوارا، وسوف يتسم التاريخ".(٤٤)

سرير الغريبة:

إن ديوان سرير الغريبة هو من معظم أشعار أهدى درويش ريعها لصالح حب بلده المحبوب عندما كان أسيرا في إسرائيل للمناخ السياسي الناتج عن انتفاضة الأقصى المندلعة في أواخر التسعينات.

هذا أول هدية غالية مخلصة شعرية مازال يحظى بها أبناء الوطن حتى الآن. من جهة، يروي هذا الكتاب رواية الحب والغرام الوطنية فمن جهة ثانية، يتداول أشكال المقاومة التي واجهت الشعب الفلسطيني لغرض واحد وهو تخليص فلسطين من السلاسل والقيود والسجون الإسرائيلية وإزالة مخاوف الموت واستئصال جذور المقاومة. كأن درويش ذهب إلى سرير الغريبة عام ١٩٩٨ من بوابة الحب بغـية إلـقاء كرة السلام في المنطقة المضطربة.

تتفق الصحيفة الأردنية مع رؤيتي هذه تماما بقولها:

"إن ديوان سرير الغريبة ١٩٩٨ ، كما يقول ، أول كتاب له مكرس للحب كليا، ورغم ذلك، حتى القدرة على الحب "شكل من أشكال المقاومة: يفترض أن تكون نحن الفلسطينيين مكرسين لموضوع واحد- تحرير فلسطين، هذا سجن، نحن بشر، نحب، نخاف الموت، نتمتع بأول زهور ربيع، لذا فالتعبير عن هذا مقاومة لأن يكون موضوعنا مملا علينا، إذا كتبت قصائد حب فإنني أقاوم الظروف التي لا تسمح لي بكتابة قصائد الحب".(٤٥)

يرى بعض من الناس أن هذا الديوان قد تخلى عن القضية. يعتقد أحد الأصدقاء الإسرائيليين الفلسطينـيين المؤلف انطون شماس في ديوانه " رسالة تحد كئيبة: إلى الجحيم بفلسطين، وأنا الآن على عاتقي." ورغم ذلك يروي شعر درويش وحضوره في رام الله قصة مختلفة يقول: "انتظر اللحظة التي

أستطيع فيها القول: إلى الجحيم بفلسطين. ولكن ذاك لن يحصل قبل أن تصبح فلسطين حرة، لا استطيع تحقيق حريتي الشخصية قبل حرية بلدي. عندما تكون حرة، أستطيع لعنها".(٤٦)

حالة حصار:

كان هذا الديوان مكتوبا في أقل من شهر عندما كان الشاعر محصورا في رام الله الذي يطلق عليه الجنود الإسرائيليون الدبابات عشوائيا وإنه كان يراها نفسه من نافذة بيته وإنهم لم يكتــفوا بذلك فحسب فإنما داهمت الشرطة الإسرائيلية منزله وعبثت بأسلحته وأوراقه وقلمه فأهدى ريع هذا الديوان لصالح الانتــفاضة وبدأ يقول الشعر تحت حصار الدبابات الإسرائيلية إلى أن اجتاحتها إسرائيل أخيرا. يقول الشاعر نفسه:

"لم تكن طريقة مقاومة إلا أن أكتب، و كلما كتبت أكثر أشعر أن الحصار يبتعد، وكانت اللغة وكأنها تبعد الجنود لأن قوتي الوحيدة هي قوة لغوية."

وتابع قائلا "كتبت عن قوة الحياة واستمرارها وأبدية العلاقة بالأشياء والطبيعة. الطائرات تمر في السماء لدقائق ولكن الحمام دائم.. كنت أتشبث بقوة الحياة في الطبيعة للرد على الحصار الذي اعتبره زائلا لأن وجود الدبابة في الطبيعة وجود ناشز وليس جزءا من المشهد الطبيعي".

واللافت للنظر إلى أن درويش لم يخاطب رئيس الوزراء الإسرائيلي إريل شارون في أي قصيدة من قصائد الديوان وقال درويش بشأن ذلك "إن شارون لا يستحق قصيدة فهو يفسد اللغة. هو متعطش للدماء ولديه حقد كبير ولكن المشكلة في الدعم الأميركي الذي يمنحه بعد كل مجزرة وساما بأنه رجل سلام.

ومازال الشاعر ابن الستين يعيش حياته من دخان البارود الإسرائيلي والإنفجارات التي تهدد كيان جسمه وتجرس جرس موته ورغم ذلك فإن كل هذا يقوي من قلمه ويجعله أشد مقاومة.

يقدم الشاعر ومضة عن ماجريات إسرائيلية في رام الله قائلا:

إلى قاتل..

لو تأملت وجه الضحية وفكرت..

كنت تذكرت أمك في غرفة الغاز..

كنت تحررت من حكمة البندقية وغيرت رأيك..

ما هكذا تستعاد الهوية..

بهذه الكلمات يدفع الشاعر القاتل الإسرائيلي إلى محاكمة نفسه في إحدى قصائده ديوانه الأخير "حالة الحصار". ويصف حالة الحصاربعدة قصائد منها:

الحصار هو الانتظار..

هو الانتظار على سلم مائل وسط العاصفة..

الحصار يحولني من معن إلى وتر سادس في الكمان..

أيها الساهرون ألم تتعبوا من مراقبة الضوء في لمحنا..

ومن هوج الورد في جرحنا..

ألم تتعبوا أيها الساحرون..

ولكن في غمرة هذا الحصار يظهر الأمل في شعر درويش:

بلاد على أهبة الفجر:

لن نختلف على حصة الشهداء من الأرض..

ها هم سواسية يفرشون لنا العشب ي نأتلف.. (٤٧)

ويخاطب درويش في إحدى قصائده الجنود الإسرائيليين الذين يحاصرون المناطق الفلسطينية قائلا:

أيها الواقــفون على العتبات ادخلو..

واشربوا معنا القهوة العربية ،قد تشعرون بأنكم بشر مثلنا..

أيها الواقفون على عتبات البيوت

اخرجوا من صباحاتنا نطمئن إلى أننا بشرمثلكم.. (٤٨)

ويتناول محمود درويش في ديوانه الذي يتضمن مائة صفحة- وقد خصص ريعه للانتفاضة الفلسطينية ويحدد مفهوما واضحا سلميا، فيقول في إحدى قصائده:

السلام نهار أليف لطيف خفيف الخطا لايعادي أحد..

السلام قطار يوحد سكانه العائدين أو الذاهبين إلى نزهة في ضواحي الأبد..

السلام هوالاعتراف علانية بالحقيقة..

ماذا صنعتم بطيف القتيل..

السلام هو الانصراف إلى عمل في الحديقة..

ماذا سنزرع عما قليل..

تمثل أشعار هذه القصيدة صورة جلية واضحة عن حوادث أصيبت بالشعب الفلسطيني من القتل والمذبحة الجماعية والقنابل واليأس والقنوط والفرحة والابتهاج والحب والمروءة.

ونجد في هذه القصيدة "الحصار" صوت فلسطين متناثر في الاسهم الصغرى وخلاصتها أن عاطفة الحب والأمن والسلام والمروءة تتمكن من تحويل العدو إلى الصديق.(٤٩)

ميزات شعرية:

محمود درويش هو أحد من النوابغ الشعرية العربية الحديثة وله قدرة فائقة ونفوذ كبير لا يمكن مقارنته إلا بمهارة تتمتع بها فحول الشعراء العرب في اطوار ازدهار الشعر.

كان درويش عضوا من أعضاء الأمة وقريبا من ضميرها وصوتا يأتي من صميم قلبها وغواصا يغوص في عمق فؤادها وناطقا يعبر عن كيانها ورساما يرسم خطتها ومبصرا يستبصر أقدارها وكشافا يكشف النقاب عن أسرارها.

يحمل الشاعر مهمة شاقة على عاتقه ويلتقط صورة وجدانية جمعية ويراقب على رغبات سامية ويضمد الضماد على جرحيات الانكسار والانهزام ويحول مجرى الشعر إلى تيارات وطنية وثقافية وروحية ومادية وجمالية ومعرفية.

يتوفر هناك لدى درويش سببان رئيسان: سبب موضوعي وسبب آخر ذاتي تسببا في بلوغ الشاعر إلى ذروة الكمال. في بعض الأحيان، يتفاعل النوعان من الأسباب في مجرى شعري درويشي كحصيلة متطورة متكاملة، وحدث في بعض الأحيان أن الشروط الموضوعية تمارس ضغوطا هائلة على الشاعر على دفع برنامجه الجمالي إلى الصف الثاني والسماح للمهمة الوطنية باحتلال الصف الأول.

لكنه في النوعين من الحالة برهن الشاعر حساسية بالغة تجاه تحسين مستوى لغته وأدواته وموضوعاته خصوصا في العقدين الأخيرين من مشواره الشعري حين خطت جمالياته الشعرية ونفوذه الأخلاقي والثقافي بعلاقة متبادلة وطيدة وأثرتا في الوجدان العربي على حد سواء.

وعلى رأس الأسباب هو انتماء الشاعر إلى حركة شعرية غنية متطورة على يد شعراء المقاومة مثل توفيق زياد وسميح القاسم وسالم جبران ودرويش

نفسه وجاؤوا بها إلى العالم العربي عندما كانت هزيمة حرب حزيران حية في أذهان عامة الناس فسميت بشعر المقاومة وشعرت بضرورة الساعة وأفهمت خطورة مشاعر مجروحة وخفـفت عبء الألم والحزن والعميق. مع أن هذه الحركة لم تكن بعيدة عن متناول الاتجاهات العامة المتواجدة في الشعر العربي آنذاك فإنها مع ذلك حملت طعما خاصا مختلفا نابعا جوهريا من روح الأمل والمقاومة والأرض والهوية الوطنية وكذلك ينبعث من أساليب تعبيرية غير مألوفة في الشعر العربي يومئذ.

في هذه المرحلة كان شعر درويش جزءا من شعر المقاومة وكان يتوجه نحو الأمام في وسط الموضوعات (أمثال الأمل والمقاومة والأرض والهوية الوطنية) ولكنه امتاز عن أقرانه ورفاقه بفضل خصائص عديدة وأهمها:

"غزارة إنتاجه (أصدر في الداخل خمس مجموعات شعرية بين ١٩٦٠ -١٩٧١ والأفق الانساني الأعرض لمجموعات قصائده، وحسن استخدامه للأسطورة والرموز الحضارية الشرق أوسطية والهيليلينية وبراعته في اسطرة الحدث اليومي والارتقاء به إلى مستوى ملحمي في الآن ذاته، ورهافة ترميزه للمرأة بالأرض، ومزجه بين الرومانسية الغنائية والتبشير الثوري، وسلاسة خياراته الموسيقية والايقاعية ، وحرارة قاموسه اللغوي، وميله إجمالا إلى الصورة الحسية بدل الذهنية. "(٥٠)

وبفضل هذه السمات حقق شاعر المقاومة الحاضر إنجازات مذهلة في درب الشعر العربي الحديث وبدأت قصائده تتصف بمستوى فني رفيع فأصبح قبلة انظار القارئ العادي والقارئ المثـقف على حد سواء. و خلـقت أمسياته الشعرية رغبة عامة وعمقت حياته دائمة التـنقل والترحال مدى تجربته الشعرية ورسخت سلطته الأدبية. أدرك درويش أن الشاعر يكون متحدثا باسم الأمة. وهذه السمات جعلت القارئ مولعا بالنص الدرويشي.

يشير الناقـد السوري صبحي حديدي إلى مزايا درويش شعرية في مكان آخر قائلا أن مشروع درويش الشعري هو مشروع تراجيدي في الجوهر لأن وعي الفلسطيني بالتراجيديا عال بدرجة تكفي لكي يتماهى مع أي تراجيديا منذ الإغريق وحتى الآن كما يقول ، فإن الملحمة الغنائية هي السمة المركزية في هذا المشروع".(٥١)

بدأ محمود درويش مشواره الشعري منذ مطلع شبابه حيث تبلور ديوانه الأول "عصافير بلا أجنحة" عام ١٩٦٠ عندما كان عمره التاسع عشر عاما. يتصف معظم قصائده بأسلوب كلاسيكي ولأغنية المحبة من هذا الديوان قيمة فنية بسيطة وبسبب ذلك تجاهله الشاعر لدى تنظيم أعماله المجموعة التي بدأت في الظهور في عام ١٩٧٣. وأما ديوانه الثاني فهو أوراق الزيتون، ظهر على مسرح العالم عام ١٩٦٤ وبفضله اكتسب الشاعر سمعة عالمية كشاعر المقاومة ومازال حيا ومعروفا في معظم بقاع العالم العربي.

وبصورة عامة، يمكن تمييز ثلاثة مراحل متميزة في شعر درويش.

تمتد المرحلة الأولى على فترة ما قبل مغادرته من إسرئيل إلى لبنان عام ١٩٧١، وتتراوح المرحلة الثانية بين ١٩٧١-١٩٨٢ والمرحلة الثالثة تستمر من ١٩٨٢ حتى يومنا هذا. وبالنسبة لموضوع يتناول شعر درويش فقدان الوطن الحبيب. مع أن درويش لايزال يدرك خطورة أبعاد الهموم الفلسطينية منذ أول يوم لكن معالجة هذه الهموم قد تطورت بشكل ملحوظ خلال السنوات.

تتداول جميع القصائد من المرحلة الأولى موضوعين عامين: الحب والسياسة.

تمتاز القصائد السياسية بجهود جبارة ولهجة جريئة وعنيفة لمعالجة هاتين القضيتين. وردا على مطالبات قام بها الصهيونيون في سياق احتلال فلسطين إنها تؤكد عروة وثقى تاريخية بين أبناء فلسطين وأرضهم وترمي إلى

تحقيق أغراضها الرئيسية الموجزة وهي تسوية المشاكل التي تواجه طبقة الفلاحين الفلسطينـــيين في مقاومة المحاولات الإسرائيلية لأجل فصلها عن أراضيهم الأبوية، وتستخدم جميع الأساليب الفنية والجمالية لتسوية القضية السياسية.

ينعكس ظلال قصائد الحب على تحويل الفتاة الجميلة إلى الأرض وهذه ميزات يتسم بها شعر درويش متأخر نراها في "عاشق من فلسطين". ونرى أيضا أن شعلة الحب تندلع بشكل مضطرد بين الأرض والشاعر وتزداد رغبة ملتهبة حتى تصل إلى حماسة الوحدة الرمزية في قصائد درويشية.

إن مكافحة درويش في شعره لصالح الوطن العربي قد أزال الوهم والغشاوة من أعين الأسرة العربية وأصبح نقطة داخلية من شعره. وصور الحياة اليومية العامة في الأرض الوطني مثل وجوه الأسرة وأصدقاء ومنظر طبيعي لسطح الأرض تكون أفكار موضوعية عن شعر المنفى. ويتكرر الجليل وحيفا والجبال والكرمل والساحل الفلسطيني في القصائد من المرحلة الثانية. وفيما يتلعق بـــ أحبك أو لا أحبك، مجموعته الأولى في المنفي تعرض اقتراحا خاصا بتحديد اتجاه ونطاق تغيـــير مجرى شعره. وخارج الوطن، يصبح الشعر صراعا متواصلا لاحتفاظ تفاصيل الخصائص المحددة.

لقد أصبحت الألفاظ والصور والذاكرة والأحلام جسما مصابا بالجرحيات والأموات وتدور حول فكرة شعرية درويشية كمصطلحات محورية وتجول الفتاة في دنيا أحلامه وتنطبع في ذاكرته دوما وتشكل جزءا لا ينفك من جسمه وعضوه ووطنه.

إذا قصدنا إلى الكلمات التي يؤظفها الشاعر فنجدها آتية من صميم فؤاده وتجربته الباحثة عن لغتها ومن كلمات يجددها ماء الشعر كما قد أشار إليه الياس خوري بقوله:

"الشعر ماء اللغة، به تغتسل من ذاكرتها وتصنع ذاكرتها في آن معا..."

وأضاف قائلا "تجربة محمود درويش هي ابنة هذا الماء به غسلت لغتها وجددتها، أقامت من المأساة الفلسطينية جدارية شعرى كبرى تختزن في أعماقها هذا الغوص في ماء الشعر وماء الحياة." (٥٢)

تنصهر التجربة الدرويشية في جوانب متعددة منسوبة إلى أرضها وملحمة خاضها الشعب الفلسطيني لذوق مرارة الهزيمة ولقمة سائغة من الموت، فتأخذ القصائد شكلا تاريخيا مأساويا.

كانت الكلمات وشم على جسد التاريخ والشعر شاهد يعجن الكلمات في التجربة أو نقرأها في حاضرها الأدبي بوصفها تلخيصا لتجربة الشعر العربي الحديث. (٥٣)

مزجت الغنائية بالرموز وأخذت أشكالا متعددة وأغنت الشعر والنثر بانتاجاتها الغزيرة من أجل تحديث الأدب العربي باعتبار أنها جزءا من مشروع النهضة العربية الحديثة الثانية.

يؤظف السواد الأعظم من الشعراء الرمز في القصيدة الحديثة على مستويات متفاوتة من حيث الرمز البسيط إلى الرمز العميق إلى الأعمق. وهذا التوظيف سمة مشتركة بين غالبية الشعراء وهكذا يبرز في الأدب كأسلوب عام يتصف بسمة ذات عنصري جوهري من النص الأول منذ قديم الزمان. إلا أننا نراه قد تعمق مداه واستولت على جميع جوانب لغة القصيدة الحديثة وتراكيبها وصورها وبنياتها المختلفة، وقد أعطى العالم الشعري معنى جديدا حافلا بشتى صور المجازية والبلاغية والإيحائية وقد أثر في المصدر الشعري بصورة مذهلة وزاد في رونق الشعر وجماله.

إذا استخدمت الرمز بهدف تجسيد التشكيلات المجالية واتساق فكري دقيق فتكون له إسهامات في تطوير شعرية القصيدة وتعميق دلالاتها وايضاحاتها ويترك أثرا بالغا على ذهن القارئ.

باستخدام الرمز الأسطوري والتاريخي والثقافي وما إلى ذلك نحت كثيرون من الشعراء صورا فنية دالة حشت بطونهم الشعرية أسلوبا ووسعت نطاقها فكريا وجماليا. وقد أصبحت أشعار درويش ممتازة في دواوينه الأخيرة لأن درويش استخدم رموز مختلفة بشكل مكثف عميق وبصورة موحية جعلت القصيدة العربية الحديثة ذات جودة عالية ومبتكرة ومبدعة متطورة تتوازى مع معظم الأشعار العالمية في القرن العشرين. (٥٤)

ففي قصيدته "يطير الحمام" وظف الشاعر الحمام ليرمز إلى السلام المفقود في وطنه.

يطير الحمام
يطير الحمام
اعدي لي الأرض كي أستريح
فاني احبك حتى التعب
.. أنا وحبيبتي صوتان في شفة واحدة
أنا لحبيبي أنا، وحبيبي لنجمته الشاردة
وندخل في الحلم، لكنه يتباطا كي نراه
وحين ينام حبيبي اصحو لكي احرس
الحلم مما يراه
..يطير الحمام
يطير الحمام (٥٥)

نرى في هذه الأبيات الحمام طائرا يصعد إلى السماء وينزل إلى الأرض مرة بعد مرة وهكذا يبدو الحمام كحلم السلام بالنسبة للشاعر منذ يحلق ما بين الأرض والسماء وينتظر عودته إلى وطنه. نرى الشاعر هنا حائرا وهائما في جوا السماء في سير جنوني ويلتمس من أبناء بلاده لإعداد الأرض

لاستراحته إذا شعر بتعبه وأراد الهبوط على وجه الأرض واللقاء بحبيبته السائرة بخطوة بطيئة لابتعاد نفسها عن أعين حبيبها.

تبدو الحبيبة حارسة أمينة لحبيبها مثلما يطارد أحلامه المفقودة ولكنه يصل نهائيا إلى يطير الحمام .. يطير الحمام وثم يحط الحمام لأنه حلم السلام بعد كل هذا العمر الذي ضاع أملا لتحقيقه، طار ولم يعد.. تلاشى ولن يأت أبدا.

يستخدم الشاعرهنا الحمام كرمز السلام الذي يضيء وينطفي في حياة الشعب.

تحتفل دواوين درويش من كل أحد عشركوكبا، لماذا تركت الحصان وحيدا؟ وسرير الغريبة وغيرها برموزأسطورية وتاريخية ودينية أمثال تموز والعنقاء ويولسيز وضياع الأندلس والنبي ويوسف وأخوته وغيرها رفعت مستواه الشعري. (٥٦)

تعرف قصيدة درويش (أنا وجميل بثينة وقناع لمجنون وليلى) برموز أسطورية مملوءة بروح الحب الوطني ومساحة البعد بين بثينة وليلى اللتان قصد بهما الشاعر إلى الوطن. (٥٧)

يعرب الشاعر عن تشاؤمه ازاء عدم اللقاء ويقول:

كبرنا، أنا وجميل بثينة ، وكل
على حدة في زمانيين مختلفين
... يا جميل ! تكبر مثلك مثلي بثينة؟
تكبر يا صاحبي خارج القلب
في نظر الآخرين..
... هي، أم تلك صورتها
إنها هي يا صاحبي، دمها، لحمها
واسمها، لا زمان لها، ربما استوقفتني

غدا في الطريق إلى أمسها... (٥٨)

ويقول في قصيدة (قناع لمجنون ليلى):

وجدت قناعا، فأعجبني أن
أكون أخري، كنت دون
الثلاثين، احسب أن حدود
الوجود هي الكلمات، وكنت
مريضا بليلى، كأني فتى شع
في دمه الملح، أن لم تكن هي
موجودة جسدا فلها صورة الروح
في كل شيء
... أنا قيس ليلى
غريب عن اسمي وعن زمني
.. أنا قيس ليلى، أنا
وأنا... لا أحد(٥٩)

هاتان القصيدتان ترويان رواية صادقة عن العشاق المشهورين في التراث العربي (جميل بثينة وقيس ومجنون وليلى) وتتسمان برموز ودلالات من واقع الحب الخالد العظيم من العشاق ومرارة الفراق التي يذوقها كل من الحبيب والحبيبة في حبهما وعشقهما.

ينطلق الشاعر هذا الرمز على نفسه وعلى حبيبته اليوم (أرضه ووطنه) ويتساءل من العاشقين المخلصين القدامي عن هذا العناء في الحب والفشل والفراق البعد القسري عن المحبوبة الذي قد قضى على حبهما أنساهما لعرف نفسه إن كان هذا البعد والمنفى الطويل عن وطنه قد جعله يألف وطنا آخر..أو حب آخر... . بعد أن مضت المسافات الطويلة ومرت العصور بدون لقاء بالمحبوبة.. لكنه يتلقى جوابا شافيا أخيرا من ردود وجميل وقيس... كانت هذه

الردود مقنعة بالرموز والإيحاء .. وتــقنع بعد ذلك بأن الشعراء يكبرون والأخيال تمضي في الوطن في انتظار لا زمان له. وهذا الانتظارعودة العشاق وعودة الأهل مهما طال الزمن فالحبيبة حية جسدا أم روحا. (٦٠)

يبتكر الشاعر الرموز الفنية والعميقة بهدف تقوية حالة ذهنية منسجمة في تراكيب قصيدته ومثل هذه الرموز تتواجد لدى قصائد درويش متأخرة وربما تكون قصيدة بيروت تضخم كثيرا من الصور الشعرية الرامزة التي يبتكرها الشاعر في سياقات القصيدة وإيحاءاتها.

يقول في مطلع قصيدة بيروت:

تفاحة للبحر، نرجسة الرخام
فراشة فجرية، بيروت، شكل الروح في المرأة
وصف المرأة الأولى ، ورائحة الغمام
بيروت من تعب ومن ذهب واندلس وشام
فضة، زبد، وصايا ا لأرض في ريش الحمام
وفاة سنبلة تشرد نجمة بيني وبين حبيبتي بيروت
لم أسمع دمي من قبل ينطلق باسم عاشقة
تنام على دمي...
وتنام... (٦١)

هذه القصيدة حافلة بالرموز والإشارات المدلولات التي لايمكنك أن تفتح أسرارها وتفك طلامسها بسهولة بل ستكون في حاجة ماسة لوقــفة طويلة وتحليل عميق عن أساليب شعرية فنية وستنظر في خلفية القصيدة وصورها المربوطة من بداية القصيدة إلى آخرها.

هذه القصيدة مرآة لبيئة عاشها بيروت بعد أن اجتاحت ودمرت وطردت إسرائيل المقاومة منها باللجوء إلى القوة وذلك لإيجاد سبيل إلى المنفى الجديد. يصور الشاعر صورة سوداء عن صراع بيروت ويرسم الواقع الأليم الذي

يسود على عاصمة لبنان ما بين الفناء والبقاء وصراع الحب وصراع الحياة والموت فصور التفاحة والنرجسة الفراشة والحمام والسنبلة.. كلها رموز للبقاء الحب.. للحياة وتقابلها صورالبحر والصخر والرخام والتعب والزبد والتشرد والدم.. وكلها رموز للفناء.. للحقد .. للموت.

يستحضر درويش صورة ملحمية وحربية مزقت أعصابه وأضعفت ذهنه ودمرت خيمته وأضرت بمنفاه. إن الوطن والماء والموج والهواء كله يجول ويدور في سماء الأرض العربية ويبدو سرابا وجفاء بعيدا عن أعينه.

يأتي الدوي من صميم قلب الشاعر ويوجع قلبه ويجسد في ثنايا قصيدة بيروت.

وكل هذه الأحلام تطوف في أنسجة دماغ الشاعر بعد أن تدمرت بيروت. (٦٢)

يتسم شعر درويش المبكر ببساطة غنائية ومجازات موسيقية مباشرة قد مهدت طريقا جديدا إلى شعره المتأخر ومجازه وتركيبه أكثر غير وضوحا وغموضا ويحظى بموهبة ظاهرية في توظيف رموزه الغنية وصياغة الأفكار الوطنية في قالب رمزي، وخلق مجموعات جديدة من الألحان الرمزية وتوظيف الكلمات الكلاسيكية النادرة. فعلى سبيل المثال، تشكل قصيدتان "الرمال" و"الرياح" مجموعة من القصائد الكثيفة الموسيقية المتصفة بمجاز ثقيل. يميل شعره متأخر إلى عاطفة تعمل وراء الخيال تندمج مع الخيال كعروة وثقى، وانطلاقا من ذلك، يمكن الوصف بأنه شعر يجسد الروح والذهن على حد سواء. ويبدو شعره المتأخر مماثلا بقصائده الأولية إلا أن الشاعر يعرب عن تفاؤله الدائم بشأن تحقيق أفضل مستقبل واعتقاد ثابت عن سيادة روح العدالة قريبا وتوحيد الرغبة الشديدة مع بلده المحبوب سواء كانت هي أرض أم الأم أم المحبة الصادقة أو الحقيقية. (٦٣)

حتى عن مؤلفاته النثرية يمكن القول لي أن درويش يرفع صوتا لا يدع مجالا للشك كشاعر كما إنه يتضح من حديث ذي جودة لحنية وعواطف مثيرة وجياشة. فلا غرابة فيه أن الشاعر قد ساهم بشكل فعال في إجراء المباحثة حول دور الحداثة كقوة نقدية في صدد تجديد الشعر العربي. ينفى درويش عن استخدام الاستعارات الثقيلة المتواجدة لدى الأسلوب الأدبي وذلك بزعم أنها تتطلب بفصل الشعر العربي الجديد من جذورها الأدبية المبكرة ووضعه في موضع الرموز الأدبية الغربية وبصورة خاصة في الآداب الإنجليزية والفرنسية. واستجابة لذلك، يزعم درويش أن الشعر العربي غير قادر على تجديد الشعر العربي إلا في حالة بقاء على التراث الضخم وبينما في نفس الوقت يسعى إلى الإندماج الكامل نفسه بمجرى رئيسي للآداب العالمية ولذلك ينتقد التقاليد البالية من الأشكال الشعرية الغربية في الأدب العربي ولا سيما من الأشكال المعينة بقصيدة نثرية مع أنه واعيا بعدم توجيه انتقادات واسعة إلى التجارب الذي حققه الشعراء أمثال محمد المغول وانسي الحاجي بنجاح كامل. (٦٤)

يقول كاتب مقدمة ديوان محمود درويش له: "إن أشعارك تصبح غامضة وبعيدة عن الناس لكثرة ما فيها من رموز!". وليس المهم هنا تبيان أن هذا القول مبالغ فيه، طالما أن رموز محمود درويش، "مكشوفة خلف منديل شفاف". بل المهم ما أثاره هذا القول في محمود درويش من تساؤلات توضح بأن المسألة الأساسية عنده هي "أن تمارس الكلمة مفعولها بين الجماهير". (٦٥)

يجيب درويش عن هذه الأسئلة "بأنها تشغل بالي بشكل ملح،خاصة إنني أعتبر نفسي شاعرا ثوريا يخاطب الجماهير ويكتب من أجل الجماهير. "

يفيض ايم. ايم. بدوي في مدح محمود درويش وعلى خصائصه الشعرية ناقلا عما قالته الشاعرة الفلسطينية سلمى خضراء الجيوسي في *مقدمة الشعر العربي الحديث: مجموعة أدبية* أن "شعر درويش لم يفقد أبدا رقته

ونشوته وقدرته على التعبـــير عن مآزق التجربة الفلسطينية وفي عرض الصور وكشف البيانات وإنه مصون من تعقيدات الفيض الغنائي اللامع والنداء العطوف إلى القـــلب والأسلوب الرنان وغيرها من جميع المجازات الأصلية. فيجوز لي أن أضف مهارته العالية الغنية وخاصة طريقة مبدعة لاستخدام القافية وأوزانها في كثير من القصائد الطويلة في مجموعاته المتأخرة ".(٦٦)

وأضاف أن الفكرة الرئيسية عن شعر درويش بالفعل على حسب الشعر الفلسطيني ليست هزيمة أو اليأس بل هي روح الأمل والعزم والثـــبات على جر الصراع. "(٦٧)

يثنى الموسيقي الفرنسي مارسيل خليفة على أبرز مزايا درويشية قائلا أن "لشعر محمود درويش مذاق خاص، فهو مرتبط بذلك العالم المسور بالدمار وأمل القيامة الأخضر وفي شعره دعوة منعشة إلى الحياة. قصائد درويش بشوشة وفرحة كالنهار الذي ننتظر قدومه ومليئة بالأمل كالساعة التي لم نعشها أحد. والحزن الواضح النبرة أحيانا خلق صلة بشرية حميمة وتعاطفا إنسانيا بالأشياء والرموز. مع شعر محمود درويش تعرفت على نفسي كفرد لي أهوائي ونوازعي ووساوسي وحاجاتي الملحة للحرية وللخبز وللورد ولقول الأنا دون خجل. "(٦٨)

ويقول أحمد قبـــش في كتابه القيم "تاريخ الشعر العربي الحديث" عن أسلوب درويش:

أن "شعره يميل إلى البساطة بساطة الحقيقة وبساطة الإحساس الصادق بالحقيقة ذلك الإحساس الذي يتوالد بين الثورات الحقيقية وينمو فيها

أنا عربي

ولون الشعر:فحمي

ولون العين: بني

وميزاتي: على رأسي عقال فوقه كوفية

... تخش من يلامسها

وأطيب ما أحب من الطعام: الزيت والزعتر

إذن سجل برأس الصفحة الأولى

أنا لا أكره الناس

ولا أسطو على أحد

ولكني إذا ما جعت آكل لحم مغتصبي

حذار. حذار. من جرعي...

ومن غضبي

لجأ درويش إلى الأسطورة والرمز أحيانا للتعبير عن أفكاره ومزج بين الأسطورة والتاريخ أحيانا ببراعة فائقة. اتخذ درويش الرمز والأسطورة وسيلة لتعمية أغراضه وطريقا يسمح لشعره بالانتشار، ولذلك سيطرت الرمزية والضبابية الغامضة والأساطير على معظم شعره." (٦٩)

أخذ الشاعر غير منقطع النظير لهجة متعمقة توفر جودة خاصة واعترافية لشعره وتناشد مرارا وتكرارا إلى ثلاثة أديان كبيرة ذات تقاليد محمدية وتعطيه بعدا عالميا. تحتل المحنة القاسية والعذاب الأليم وخاصة الجرحيات والضحايا موضوعا دائما. يوظف درويش أيضا أوتار العهد القديم بشكل واسع وبصورة خاصة مسيحية وجيريميه يستنكر من خلالها أعمالا إسرائيلية مشحونة بروح العداء والشراسة ضد أبناء فلسطين. تبدأ قصدية أحبك أو لا أحبك مع سبع عشر ترنيمات مقدسة مكرسة لفلسطين. و يرجع صدى النوحة درويش إلى العهد القديم التي نستمع إلى اللغة الأصلية العربية والعبرية الثانوية. سالكا على سبيل الشعراء العرب الكلاسيكيين يتخلى درويش عن صوت ذاتي يرفعه الشاعر الغنائي ويغني اغنيات بطولية يغنيها الناس كصوت جماعي. يمتاز درويش بأسلوب بسيط وبتأثير مباشر وبوضوح تام أكثر من مرحلة سابقة ثانية. ومما يستحق بالذكر في هذا السياق هو قصيدة

بيروت وقصيدة مديح الظل العالي والقصيدة الثانية الموسومة بقصيدة تسجيلية أطول من أولها موضوعا وفنيا وتقوم بتعريف المدينة بيروت والبحر الأبيض المتوسط في الشعر العربي الحديث كأدوات ذات اهتمامات شعرية مستديمة وتنعش موهبة كامنة في صوت درويش محمدي من أجل تأديب الأنظمة العربية في صدد إيقاف الفلسطينيين واللبنانيين ضد المذبحة الإسرائيلية. إن اللهجات القاسية وغير السائغة محجوزة لصالح دول ملكية غنية بثروات نفطية. لم يستخدم أي شاعر عربي معاصر اللغات والأساليب والألحان القرآنية والتقاليد المحمدية-أمثال أحد عشر كوكبا، يوسف وإخوته- بشكل مؤثر كما وظفها محمود درويش.(٧٠)

الهوامش

١. غسان كنفاني: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٦ ص ٩

٢. المرجع السابق ص ٩

٣. غسان كنفاني:ألادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨ ص ٨

٤. المرجع السابق ص ١٠

٥. مطاع صفدي: مقدمة ديوان توفيق زياد ص ٩

٦. مايا جاغي: الغارديان البريطانية ٨ حزيران ٢٠٠٢

٧. عز الدين المناصرة : مقدمة ديوان سميح القاسم ص و- ز

٨. غسان كنفاني: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٦٦- ٤٨ ص ٢٣

٩. محمد دكروب : مقدمة ديوان محمود درويش، عصافير بلاأجنحة ص:٥

١٠. غسان كنفاني: الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-٦٨ ص ٢٧ -٢٨

١١. المرجع السابق ص٥- ٦

١٢. محمود درويش: "يوميات جرح فلسطيني"، ديوانه ١٩٧١، ص ٣٨٣

١٣. المصدر السابق ص ٣٨٤

١٤. محمود درويش: من مقال هذا الاهتمام يهمنا مجلة "الجديد" ، حيفا

١٥. الديوان نفسه، "صلاة أخيرة" ،عاشق من فلسطين، ص ٣٥١

١٦. محمد دكروب: مقدمة ديوان عصافير بلا أجنحة، نقلا عن حديث طويل أدلى به إلى جريدة التي يصدرها الشيوعيون في إسرائيل باللغة العبرية ١٩/١١/ ١٩٦٩

١٧. محمود درويش: من حديث أدلى به لكاتب هذه السطور ونشر في العدد ١٠ -١١ من مجلة "الطريق" ١٩٦٨ الخاص ب "أدب المقاومة في فلسطين

١٨. جريدة الرأي ٣ كانون الأول ٢٠٠٥

١٩. الدستور الأردنية، ٢٨ حزيران ٢٠٠٢
٢٠. ايلاد أمي بوسكيلا، "الأدب الفلسطيني الحديث وثقافته"، ص ١١٣-١١٤
٢١. غازي مسعود: "محمود درويش... شاعر العالم العربي" الدستور الأردنية، ٢٨ حزيران، ٢٠٠٢
٢٢. المرجع السابق، الأدب الفلسطيني الحديث والثـقافة (بالانجليزية)
٢٣. جريدة "الغد" ١٢/ كانون الأول ٢٠٠٥ ، ٣٠ تشرين الثاني، ٢٠٠٥
٢٤. مجلة الشعراء، العدد الثامن، ربيع ٢٠٠٠، ص ٢٩٢
٢٥. مجلة المشارف، العدد الثالث، الصادرة في حيفا في تشرين الأول عام ١٩٩٥
٢٦. المرجع السابق
٢٧. مجلة الشعراء، العدد الثالث، ربيع ٢٠٠٠ ص ٢٩٢
٢٨. آر، سيرافـين: موسوعة الأدب العالمي في القرن العشرين ، الجلد الأول (١٩٩٩)
٢٩. محمود درويش: شيء عن الوطن ص ٢٣
٣٠. محمد دكروب: نقل هذا القول عن درويش في مقدمة ديوانه ص ظ
٣١. محمود درويش: ديوانه ١٩٧١ ص ٦
٣٢. غسان كنفاني: الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨ -١٩٦٨
٣٣. محمود درويش: "أوراق الزيتون" ديوانه، ص ١٣٢- ١٣٣
٣٤. د. أحمد أبو حاقة: "الالتزام في الشعر العربي" ص ٦٤٩-٥٠
٣٥. غسان كنفاني، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨ - ١٩٦٦ ص ٤١
٣٦. راجع لمزيد من المعلومات إلى ديوان درويش ١٩٧١ ص ٢٥٨
٣٧. ديوان درويش ١٩٧١ ص ٢٦٠
٣٨. غسان كنفاني: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨ - ١٩٦٦ ص ٤١ - ٤٢

٣٩. مجلة فلسطين، ربيع ٢٠٠٢، ص ٧٨

٤٠. مجلة المشارف،العدد الثالث، الصادرة في حيفا في تشرين الأول عام ١٩٩٥

٤١. http:/www.sis.gov.ps/Arabic/roya/١/page/html.

٤٢. مجلة الشعراء، العدد الثـــالث، ربـــيع ٢٠٠٠

٤٣. نقلت هذا القول عن موسوعة الفلسطينيين (بالإنجلزية): تحرير فلـــيب ماتا

٤٥. جريدة الدستور الأردنية ٢٨/حزيران ٢٠٠٢

٤٦. نقلت الدستور الأردنية عن ديوان انطون شماس رسالة تحد كئيبة

٤٧. الدستور الأردنية ٢٨ / حزيران ٢٠٠٢

٤٨. المصدر نفسه

٤٩. منغليش دبرال، مجلة "بهل" ٢٠٠٤ (باللغة الهندية) ص ٦٣

٥٠. صبحي حديدي: "الأيام" ، ٢٨ صفر ١٤٢٧هـ الموافق ٢٨ آذار ٢٠٠٦

٥١: المرجع السابق

٥٢. الياس خوري: من كتاب: جريدة رقم ٣٩ ، ٣/ كانون الثاني ٢٠٠١

٥٣. المرجع السابق

٥٤. لمزيد من التفاصيل زاجع ديوان محمود درويش أحد عشركوكبا ١٩٩٣ وسرير الغربية ١٩٩٩

٥٥. محمود درويش: حصار لمدائح البحر ص ٢٢١

٥٦. انظر قصائد أقبية أندلسية ورحلة المتنبي إلى مصر

٥٧. سرير الغربية ص ١١٦-١١٨

٥٨. المصدر نفسه ص ١١٨

٥٩. المصدر نفسه ص ١٢٤

٦٠. المصدر نفسه ص ١٢٥-٢٦

٦١. محمود درويش: "حصار لمدائح البحر" ص ١٤٥

٦٢. أحمد الزعبي : "جريدة الرأي الأردنية"الجمعة ٢٠/٠٧/٢٠٠١

٦٣. جولي ميسامي و استاركي بال: موسوعة الأدب العربي ص ١٨٣

٦٤. المصدر نفسه ص ١٨٤

٦٥. محمد، دكروب: ديوان محمود درويش ١٩٧١ ص ن- س

٦٦. ايم. ايم. بدوي: :تاريخ موجز للشعر العربي الحديث ص ٧١-٧٢

٦٧. المصدر نفسه ص ٧١-٧٢

٦٨. http:www.al-ayyam.com

٦٩. أحمد قـبش: *"تاريخ الشعر العربي الحديث،"* ص ٦٢٦-٢٧

٧٠. نـقلت هذه المعلومات عن موسوعة الفلسطينيين حررها فلب ماتا

البـاب الثالـث

- الفصل الأول: أعمال محمود درويش في منظور نقدي
- الفصل الثاني: مقارنته مع سميح القاسم وتوفيق زياد
- الفصل الثالث: مكانته في الشعر العربي الحديث

الفصل الأول

أعمال محمود درويش في منظور نقدي

عند دراستنا النـــقدية لأعمال محمود درويش لا بد من وضع مقايـــيس نقدية معينة منسجمة وملائمة مع طبيعة شعره ونثره ولا بد من تحديد قواعد نقدية موضوعية موضوعة لهذا الغرض. إن وظيفة النـــقد هي وظيفة رئيسية لا تكتفي على إبراز المزايا الفنية أو نقاطها الضعيفة فحسب وإنما تبحث عن مبادئ موضوعية شعرية.

يحمل شعر درويش تيارين نقدين يشيعان في الآونة الأخيرة ويحاولان دراسة شعر الأرض المحتلة وشعرائها. أحد منهما تيار عاطفي والآخر تيار موضوعي. يجري التيار الأول في أوج دوافع الحب والتقدير ووضع الثقة بعلاقة الشعر بالتحولات الاجتماعية والسياسية والتاريخية الحاصلة لدى أية أمة ماضية أو حالية أم مستـــقبلية. وأما التيار الثاني فهو يعتمد على النص فقط. فمعناها أن الحب والموضوعية هما شرطان لازمان تقوم عليهما دراسة نقدية وعملية فنية مقبولة لدى الشاعر وليس بإمكان الشاعر إبراز سماته الفنية ورفع مستواها بدون توظيف هذين الشرطين اللذان يمثلان جزئين لا يتجزآن من الفن ويشكلان نصف الآخر. ولايوجد هناك فن بلا التزام ولايوجد التزام بلا فن. من صعيد، يطهر الحب قلب الإنسان من جو الكراهية والحقد والإشمئزاز فمن صعيد آخر، تمنع الموضوعية الانسان من التمادي في واقع الحب... وهكذا يتمثل هذان التياران كمحورين يدوران حول الدراسة النقدية.

برزت كوكبة من الشعراء من الأرض المحتلة في السنوات الأخيرة من القرن العشرين إلى سماء الشعرالعربي: هم محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد تشبثوا بهذين الشرطين تـــشبثا كاملا. على حسب اعتقادي يبدو محمود درويش أكثر التزاما بالمضون أكثر من التزام بالشكل وأشد من زميليه.

يــبرز محمود درويش كشاعر مقاوم مرموق وناقد واعي معا على مسرح العالم الأدبي العربي ويجثم بموضوعية مدهشة تــقضي بمراعاة شعره وشعر زميليه ويعلن عن كونه الشاعر الثوري المعاصر ويصرح عن حبه القاسي ويقدم نظرة واقعية ماركسية من خلال شعره. يصدقني كاتب مقدمة ديوان محمود درويش ١٩٧١ في ألــفاظه البديعة التالية.

"هنا يأتي محمود درويش، بوعيه النــقدي الرفيع، وبقدرته على مراقبة شعره وشعر رفاقه بموضوعية مدهشة، ليعلن أمام المحبين، بصراحة الرجل الثوري المعاصر: "انقــذونا من هذا الحب القاسي". (١)

"محمود درويش، الناقــد والشاعر معا، يرد ظاهرة هذا الحب الأقرب للتــقديس، إلى ظروفها الواقعية، خاصة بعد أحداث الخامس من حزيران، ويلخص النظرة المبالغة في حب شعرهم والنظرة الضرورية الواقعية التي لا بد أن نقيم هذا الشعر من خلالها".(٢)

يبرز الشاعر درويش كناقد نفسه ويتنقل بين الموضوعات والكتب والقصائد، ويؤدي وظيفته على أحسن مايرام كما إنه يؤكد على ضرورة إيضاء المناطق المعتمة والجديدة وأخذ القارئ إلى اللامتوقع الذي يضمن لشاعر والمتلقي الاستمتاع بلعبة الشعر.

نشيرهنا إلى أهم نقاط نقــدية تزيد غرة في جبــين شعردرويش.

الإيجابيات

- كان شعر محمود درويش مصبوغا في صبغة كلاسيكية ناتجة عن جهود قام بها في صدد جعل شعره ناطقا بلسان السواد الأعظم من الجمهور.
- كان شعره امتدادا لازدهار الشعر الفلسطيني الكلاسيكي والرومانسي في السنوات الأخيرة من القرن العشرين

وكذلك إنه جبهة أمامية من شعر المقاومة الفلسطينية والماركسية.

- يعالج شعره الظواهر الثورية والأحداث السياسية المحلية والقومية والعالمية في يومئذ.
- ذاع صيت شعره كشعر رائد عالمي في شعر المقاومة في أواخر القرن العشرين.
- يطهر شعره قلب الإنسان من جوالكراهية والحقد والاشمئزاز ويبذر بذور الحب والحنين في قلوب عامة الناس.
- ينسكب واقع الحزن والحنين والغضب الداخلي والخارجي والصوت المهموس في شعره وكذلك يتجلى هناك الوصف الخطابي والرومانسي والغنائي والروائي وحب الوطن الصادق المفعم بالإيمان بالأرض.
- يحتـــفل شعره بملحمة غنائية ورثائية متوالية
- يعلن شعره عن هوية عربية ويلاحم بتراب فلسطين ولحمها ودمها.
- تأثر شعره بأساليب نزار قباني والسياب والبياتي الشعرية.
- يصبح شعره خادما للجمهور ويخفف وطأة اندحارهم وانهزامهم
- إن شعره مرآة صافية يلمع فيها وجه الإنسان كماء نقي
- يلبي شعره حاجات الجمهور ويتمشى مع متطلبات الزمن
- يغدو شعره أغنية ثورية ويحمل طياته مضمونا اجتماعيا ثوريا.

- يبلغ شعره أوج كماله مضمونا وشكلا ورمزيا وأسلوبا بسيطا
- تملئ قصائده بالزيتون، والبرتقال، والكروم، والبيارات والمناديل
- تلبي قصائده مستجدات الحياة و متطلبات القارئ الفطين
- كان الوطن منسوجا من نسيج شعره، وحاضرا دوما في شعره
- يبدو شعره ملتزما بأوزان القافية التـــقليدية والألـــفاظ الموجزة
- يهتم شعره بسؤال الموضوع أكثر من اهتمامه بسؤال الشكل
- يملأ شعره بالملامح الشفوية والجمالية والإيقاعات المباشرة
- يعيد شعره الحياة إلى اللغة وينفخ روحا جديدة فيها
- إن شعره غني بألفاظ قرآنية لا يستخدمها أي عربي شاعر
- لا يخلو شعره من سؤال اللغة وسؤال الشعر وسؤال المجاز وسؤال الحداثة منذ صدور مجموعة "الأعراس" عام ١٩٧٧م.
- يعالج شعره سؤال الكتابة، سؤال الزمن، سؤال النوع.
- تتحدث أعماله الأدبية عن سؤال الحرية، سؤال الجمال، سؤال الشعر، سؤال الإنجاز، سؤال الجمال، سؤال الأخلاق، سؤال الحلم، سؤال أوسلو، سؤال مدريد، سؤال الشعب، سؤال المنظمة، سؤال السلام، سؤال الوجود،

سؤال التجربة، سؤال الانتفاضة، سؤال الموقف، سؤال الضمير، سؤال الوعي، سؤال التطبيع، سؤال الصراع وسؤال القدس.

السلبيات

- لقد أصبح شعره أكثر غموضا لكثرة الرموز والإشارات.
- يتصف شعره برفض عصبي لظاهرة اجتماعية محدودة ومع ذلك يتصف أيضا بضعف مثير للدهشة في بنائه الـــفني.
- تتسم قصائده بروح رومانسية ذات أفـــق محدود وموقف جزئي وضعف فني ملحوظ.

يقدم لنا أمثلة على هذا النوع بالتناوب مشيرا إلى سياقها.

ففي بداية الأمر، نتوجه إلى أواخر الخمسينات حيث يصب محمود درويش فيها جام غضبه على الوضع التالي ويشكو عن شدة الأذى التي لاقت بها فتاته ويغني القصائد التالية:

وتنام أجفان الحياة
الا بكاء من كئيب موجع
ينسل من أعماق بيت
من بيوت القرية
هي بنت شيخ القرية
تبكي وتصرخ باكتـــئاب

والسوط محمر الإرهاب (٣)

يشـــتد غضب محمود درويش في هذه الأبيات شكلا ومضمونا يمثلان ضـــعفا فكـــريا و أفـــقيا جزئيا. ومع ذلك لا يخلو سميح القاسم وراشد حسين وغيرهم لكن نظرا إلى موضوع الدراسة النقدية عن أعمال محمود درويش لا نقـــدم أمـــثلة أخرى ضربها الشعراء الآخرون إلا شاعرنا الكبير الذي يقـــفز قـــفزة كبيرة من الرقي والتـــقدم شكلا ومضمونا ملموسا ويرتـــقي إلى مدارج عالية. فعلى سبيل المثال. نلاحظ هذه الأبيات التالية:

لقد تعود كفي
على جراح الأماني
هزي يدي بعنف
ينساب نهر الأغاني
يا أم مهري وسيفي..
يداك فوق جبـــيني
تاجان من كبرياء
اذا انحنيت انحنى
تل وضاعت سماء
ولا أعود جديرا
بقبلة أو دعاء
والباب يوصد دوني!
على يديك تصلي
طفولة المستـــقبل
وخلف جفنيك طفلي
يقول: يومي أجمل
وأنت شمسي وظلي (٤)

قرض الشاعر هذه الأبيات في وسط الخمسينات ويركز بشكل مستمر على جوانب ضيــقة من المشاكل الاجتماعية كما يؤكد سميح القاسم وحسين وفهد أبو خضرة وأحمد حسين وعصام عباس وابراهيم مؤيد وغيرهم كثيرون في أشعارهم على آفاق جزئية من الاجتماع.

بدأ محمود درويش يأخذ آفاقه الاجتماعية منذ أوج الكارثة الفلسطينية ١٩٦٧م وإنه يصف وطنه عائلته ويعتبر حبه به حب أولاده كما ينسكب في مقطع شعره بصورة موحدة، يلخص الشاعر موقــفه:

خبئي عن اذني هذي الخرافات الرتيبة
أنا أدري منك بالانسان
بالأرض الخصيبة
لم أبع مهري
ولا رايات مأساتي الخصيبة (٥)

يــبدو محمــود درويش يحمل موقفا جزئيا فــفكر في استكماله واضعا للبعد الاجتماعي أساسه الأعمق:

ولأن أحمل الصخر
وداء الحب
والشمس الغريبة
أنا أبكي!
أنا أمضي قبل ميعادي، مبكر
عمرنا أضيق منا
عمرنا أصغر أصغر..
أصحيح يثمر الموت حياة؟
هل سأثمر
في يد الجائع خبزا

في فم الاطفال سكر؟

إنه يدعو دعوته الواسعة:

فاحملوا سنابلكم من الإعصار

بالقدم المسمر

هاتوا السياج من الصدور

من الصدور

فكيف يكسر؟

اقبض على عنق السنابل

مثلما عانقت خنجر!

الأرض والفلاح والاصرار

قل لي: كيف تقهر؟

هذي الاقانيم الثلاثة

كيف تقهر؟ (٦)

يتناول مقطعان الابعاد الاجتماعية كما تشير الألفاظ أمثال الصخر وداء الحب والخبز والسكر والأرض والفلاح والسنابل والخناجر وغيرها.

لمحمود درويش قصائد كثيرة وقصص كثيرة تتعامل مع مشكلات المؤسسة العائلية العربية الريفية وأوضاع اقتصادية متردية يعيشها العربي في فلسطين المحتلة وتتصاعد فنيا إلى الذروة. وعلى رأسها "عصافير بلا أجنحة ١٩٦٠" و"أوراق الزيتون ١٩٦٤" و"عاشق من فلسطين ١٩٦٦" وما إلى ذلك و"ذاكرة للنسيان" و"عابرون في كلام عابر" و"شيء عن الوطن" و"داعا ايتها الحرب" وما إلى ذلك.

يبدأ محمود درويش مشواره الشعري بنزعة رومانسية ومحبة وطنية تشده إلى تراب الأرض وأشجار التين والعنب كما تنسكب في ديوانه الأول "عصافير بلا أجنحة ١٩٦٠" كتبه بعد أن وجد قريته مدمرة.

"أنا في ترابك يا بلادي رعشة الدفء والفتية

أنا في كروم التين في قلب البراري الجسدية

وهنا في جذوري في ترابك

كيف تقلعها اياد أجنبيته؟

ويقول في نهاية القصيدة:

"ما جئت أبكي يا رفاق احبتي

حملت جروحي حقد مليون

بارض الغربة!" (٧)

وهو نفسه الذي يقول:

" أ اجوع يا بلدي ويشبع غاصب

جعل البقايا من عظامي موائدا

انا ثائر لك يا تراب بلادنا

انا ثائر لك يا شقيقي العائدا

ولكي يظل النهر ثرا صاخبا

ناديت ادفع للمصب روافدا! (٨)

يصف الشاعر أرضه ووطنه فتاة جميلة يحبها حبا عظيما ويحلمها دوما في منامه ورؤياه. يقول درويش نفسه في قصيدة أخيرة فيها:

...، وأنت كنخلة في الذهن

ما انكسرت لعاصفة وخطاب

وما جزت ضفائرها

وخوش البيد والعاب

ولكني أنا المنفى خلف السور والباب" (٩)

ويتحول إحساسه بسرعة فائـــقة إلى مرحلة متقدمة في قصيدة أخرى يخاطب فيها "الفتاة الفلسطينية" خارج الأرض المحتلة.

"ونعبر في الطريق

مكبلين

كأننا أسرى

يدي – لم أدر – أم يدك

احتست وجعا

من الأخرى؟" (١٠)

ويتـــقدم إلى مرحلة صميمة للغاية بعد أن أشار إليها ببراعة بقوله:

" لعلي صرت منسيا لديك؟

كنغمة في الريح

نازلة إلى المغرب

ولكن إذا حاولت

إن أنساك

حط على يدي كوكب" (١١)

قطع درويش شوطا كبيرا من المحبة الشخصية–الأرضية والعلاقة الفردية–الوطنية–الشعبية خلال إقامته في زنزانة السجن في النصف الأول من ١٩٦٦، وكتب ديوانه الثاني "عاشق من فلسطين ١٩٦٦، إنها ليست عبارة عن مشاعر ترعرع في قلوب جماهيرية فانما هي مملوءة بعلاقة الرجل بإمرأة وعلاقته بوطنه.

في هذا الديوان، تضحى حبيبة الشاعر شفافة كاملة ويضحى جمالها في كلمة ساحرة: "فلسطينية" .. ويلمع وجهها لوجهه يفيض المحبوب في مدح حبيبته:

" .. واقسم:

من رموش العين سوف أخبط منديلا

وانقش فوقه شعرا لعينيك

واسما حين اسقيه فؤادا ذاب ترتيلا

يمد عرائش الأيك..

سأكتب جملة أحلى من الشهداء والقبل :

"فلسطينية كانت ... ولم تزل!" (١٢)

ويبرر الشاعر كل شيء في الأبيات التالية:

"لك المجد..

تجنح في خيالي

من صداك

السجن والقيد

أراك اذا استندت

إلى وساد

مهرة تعدو...

احسك في ليالي البرد

شمسا

في دمي تشدو ..

اسمك الطفولة

يشرئب أمامي النهد!

اسمك الربيع

فتشمخ الأعشاب والورد!

اسميك السماء

فتشمت الأمطار والرعد ..

لك المجد!

فليس لفرحتى بتحيري

وليس لموعدي وعد!" (١٣)

يتوجه درويش مرة أخرى نحو "عاشق من فلسطين" من أجل تقديم نموذج رائع من شعر شباب الأرض المحتلة العرب الذين بذلوا ما في وسعهم في تجسيد الشعر بعد النكبة مباشرة. نال درويش شعبية عامة بفضل مستواه الـفني وتجربة شعرية متعمقة في صميم القـلب وصميم الوطن وحوافز تدفعه إلى يقظة محلية.

لقد حاولت إلى الآن في الأمثلة السابقة أن نقدم ومضة وجيزة لما حدد شعر محمود درويش دوره بأنه وسيلة فنية أكثر رسوخا وأكثر قدرة على معالجة القضايا وأكثر ملائمة لهذا الغرض فنيا وأكثر التزاما بالقضية الوطنية ومناهضة الاحتلال الإسرائيلي دون أن يفقد أي بعد من أبعاده وحرارته.

ومن وجهة هذا النظر لشعر محمود درويش أهمية قصوى في المعركة القاسية ويشعرالشاعر بضرورة دوره ويعتبره مسؤولية محورية.

في هذا الصدد يقول محمود درويش في أعقاب هزيمة ٥ حزيران:

هزي يدي بعنف
ينساب نهر الأغاني
يا أم مهري سيعطي (١٤)

يدرك الشاعر علاقة وطيدة بين الأم والمهر والسيف والأغاني والأيدي. يرى ثلاثة شعراء المقاومة أن كلمتهم قادرة على أداء مسؤولياتها بشكل أفضل وإلتزامها بطرق منفردة عن بعضهم البعض من حيث الأسلوب والكم الشعريـين.

قد حان موعدنا لنـقارن بين محمود درويش وزميليه مضمونا وشكلا.

• مقارنة بين محمود درويش وسميح القاسم

إذا قارنت بين محمود درويش و أقرانه فتجد هناك ظروفا مماثلة مضمونية لأن كل واحد منهم يختلف من الآخرين اسلوبا ولغة وبنية.

يرجح توفيق زياد المضمون على الشكل ويتشبث به تشبثا كاملا بالخط الماركسي أكثر من زميليه ويعطى أولية ثانوية إلى الشكل في شعره ويراوح سميح القاسم بين الفن والالتزام إلى حد كبير وأما درويش فهو يجثم بالمضمون والشكل معا لكنه يهتم بأول الذكر خاصة فهو يقول:

قصائدنا
بلا لون، بلا طعم، بلا صوت،
اذا لم نحتمل المصباح
من بيت إلى بيت (١٥)

يظل درويش مؤرقا بسؤال الموضوع... وسؤال الفن وهذا مايظهر في "أعراس ١٩٧٧" وجدارية ٢٠٠٢.

تعبيرا عن قيمة الكلمة الشعرية ودورها كيف يأتي سميح القاسم بموقف مماثل إلينا في ديوانه "دمي على كفي" ويصر على ذلك:

قصائدنا، موقعة على الفولاذ
والأخشاب والصخر
وامتنا تحث الزحف
ما زالت تحث الزحف للفجر (١٦)

ويخطو درويش خطوة أخرى أمام القصيدة التالية بالذات:

لو كانت هذي الأشعار
ازميلا في قبضة كادح
قنبلة في كف مكافح

لو كانت هذي الكلمات

محراثا بين يدي فلاح

وقميصا، أو بابا، أو مفتاح! (١٧)

أحد الشعراء يقول:

لو سرت أشعاري خلاني

و أغاظت أعدائي

فأنا شاعر!

وأنا سأقول! (١٨)

تأثر درويش بشعر الناقد الأسباني اللوركا فيقول في قصيدة أخرى عنه:

هكذا الشاعر، زلزال، وإعصار مياه

ورياح إن زأر

همس الشارع للشارع: قد مرت خطاه

فتطاير يا حجر (١٩)

وهو يعترف بشأن وقيمة المسؤولية:

رموا أهلي إلى المنفى

وجاءوا يشترون النار من صوتي

لأخرج من ظلام السجن

ما أفعل؟

تحد السجن والسجان

فإن حلاوة الايمان

تذيب مرارة الحنظل (٢٠)

ويعترف بأكثر من ذلك:

شدوا وثاقي

وامنعوا عني الدفاتر

والسجائر

وضعوا التراب على فمي

فالشعر دم القلب

ملح الخبز

ماء العين

يكتب بالأظافر

والمحاجر

والخناجر

سأقولها:

في غرفة التوقيف

في الحمام

في الاسطبل

تحت السوط!

تحت القيد

في عنف السلاسل:

مليون عصفور

على أغصان قلبي

تخلق اللحن المقاتل (٢١)

وإنه يدلي باعتراف بدور الصاعقة الصوتية وأداء اللهجة الشديدة التي تشق طريقا في الهواء وتضرب بصدمة كهربائية وتثقب ثـقبا طويلا في قلوب الناس فانه يقبضه بأيديه...

لكن صوتي صاح يوما:

لا أهاب!

فلتجدوه اذا استطعتم

واركضوا خلف الصدى

ما دام يهتف: لا أهاب! (٢٢)

يصر محمود درويش على المستويين السياسي والاجتماعي في آن واحد والتزم بتحريروطنه من خلال إدراك دور الكلمة وأثرها في ذهن عامة الناس.

يلخص لنا سميح القاسم في قصيدة له اسمها "بطاقة إلى نجيب محفوظ":

فاغرف من أعماق البئر العذراء

واسق العامل والفران وأولاد الحارة

فالناس ظماء!

أكتب عن شحذ الهمة

واكتب عن أحلام الأمة

طوبي للحرف الشامخ في الليل منارة

والعار لابراج العاج المنهارة (٢٣)

من جهة، نرى في شعر محمود درويش جملا صغيرة وأسلوبا بسيطا ونفس الأسلوب يبدوخالياعن شعر سميح القاسم من حيث الكمية.

كيف يثمن درويش شعره ويستقبل كارثة ٥ حزيران باالحزن البالغ:

خسرت حلما جميلا

خسرت لسع الزنابق

وكان ليلي طويلا

على سياج الحدائق

وما خسرت السبيلا! (٢٤)

هذه الأبيات عبارة عن الأسف والألم والحزن بسبب الخسارة الفادحة وفقدان الكرامة الإنسانية، و يرحب سميح القاسم ٥ حزيران ١٩٦٧ بصورة مبدعة عن الفدائي:

يا من وراثي

لا تخونوا موعدي

هذي شرايبني

خذوها وانسجوا منها

بيارق نسلينا المتمرد (٢٥)

كيف يغني توفيق زياد قصيدة تالية بمناسبة ذكرى كارثة ٥ حزيران:

يا بلادي! أمس لم نطف على حفنة ماء

ولذا لن نغرق الساعة في حفنة ماء ! (٢٦)

بنفس الحزن يكتب توفيق زياد قصيدته الرائعة "كلمات عن العدوان" وهي قصيدة مفعمة بالحزن واليأس.

إنكم تبنون لليوم وانا

لغد نعلي البناء

إننا أعمق من بحر وأعلى

من مصابيح السماء

إن فينا نفسا

أطول من هذا المدى الممتد

في قلب الفضاء (٢٧)

يمضي درويش خطوة خطوة نحو البعد العالمي والبعد العربي وحركة الثورة العالمية الناشئة داخل الحركة الثورية المحلية ويلـفت الشاعر الانتباه الدولي بصورة مذهلة نحو ثورات العالم وقضاياه الحرة. انتج درويش المنتجات الغزيرة كمية ونوعية فانا أقدم هنا قصيدة "أناشيد كوبية" أبرز نموذج على التزامه بالبعد العالمي.

أنا ألمس قصب السكر

والأرض الخضراء

لم أركب قارب صياد في البحر الكاربي

لم اضرب قطرة ماء

لم أنزل فندق سياح غرباء

لم أسكرفي هافانا من عرق الفقراء

لم أغمس قلمي في جرح البؤساء المحرومين

لم أقرأ أدب الشعراء الكوبيـــن

لكن عندي عن كوبا أشياء أشياء

فكلام الثورة نور

يقرأ في كل لغات الناس

وعيون الثورة شمس

تمطر في كل الأعراس

ونشيد الثورة لحن

تعرفه كل الأجراس

والراية في كوبا

يرفعها نفس الثائر في الأوراس

وجذور الثورة مهما مدت أغصانا

تنبت من نفس المتراس

واللهب الأزرق والأحمر والأخضر

يبدأ من غضب واحد فتدفأ..

واصنع لهبا آخر

يا شعبا يشعر بالبرد (٢٨)

يجذب شعر درويش هذا نظرنا إلى محور المقاومة وموجة الثورة التي تدب على سطح الأرض العالمية ويلتصق بهذا البعد الحيوي شكلا

ومضمونا ويستخدم ألفاظا قليلة للتعبير عما في ضميره وفيما يتعلق بالمضمون فيبدو ثائرا وغاضبا... .

يحذو سميح القاسم حذو درويش في قصيدته إلى ثوار "فيتكونغ" فيقول:

إسمها تهدرملء دمي
إسمها في الوديان على الغابات على القمم
إسمع صرخات الاحرار وقهقهة الرشاش
إسمع غارات القاشـــست الأوباش
وأصبح أصبح بلا صوت:
الموت لآلهة الموت (٢٩)

وبالطبع، قد أصبح الالتزام بالبعد العالمي أحدا من ميزات شعر المقاومة وجسد جسمها وكيانها وانعكس على تجارب كثيرة لاقتها عديد من البلدان العربية في الفترة الماضية.

في هذا السياق، نذكر أولا ديوانه الأول "عصافير بلا أجنحة" وكرس معظم قصائده لثورات افريقيا وثورات العالم بنية محضة وصميم الفؤاد وقدم أجود رثاء عربي للشاعرالأسباني الثائر لوركا وطرح نظرة واعية تتضمن المسئلة كلها في قصيدته "عن الأمنيات" (٣٠)

يقول درويش:

لا تقل لي:
ليتني بائع خبز في الجزائر
لأغنى مع ثائر
لا تقل لي:
ليتنى راعي مواش في اليمن
لأغنى لانتفاضات الزمن
لا تقل لي:

ليتني عامل مقهى في هفانا

لأغنى لانتصارات الحزاني

لا تقل لي:

ليتني أعمل في أسوان حمالا صغير

لأغني للصخور

يا صديقي!

أرضنا ليست بعاقر

كل أرض، ولها ميلادها

كل فجر، وله موعد ثائر! (٣١)

نفس الفكرة العالمية تتسكب في شعر سميح القاسم كما يلي:

يا أسطى سيد !

إبن وشيد

شيد لي السد العالي

شيد لك

أطفىء ظمأ الغيظ الغالي

وامنحنا

وامنح أهلك

كوبا من ماء

وخضارا وزهورا وضياء

يا أسطى سيد

أزف الموعد

والقرية في الصحراء العطشي تحلم

والبذرة في الثلم الصابر تحلم

فادفن أشلاء القمقم

في أشلاء الصخر المتحطم

وابن وشيد

يا أسطى سيد

باسم ضحايا الاهرام وباسم الاطفال

إبن السد العالي!

يا صانع حلم الأجيال ! (٣٢)

تجعل طبيعة القضية الفلسطينية ديوان شعر المقاومة ناطقا بلسان الضمائر العربية والمؤرخ لها والسجل لها فبا لتالي، احتفظ ديوان درويشي بكل تفاصيل التحولات فيما بينها عدون ١٩٥٦ عدوانا ثلاثيا على مصر، نقطة تحول أساسية في تاريخ ذلك الشعر وكذلك كانت ثورة الجزائر، وثورة اليمن،وبناء السد العالي كلها أسرعت عجلة النمو الأدبي المقاوم. فيمكـــننا ملاحظة هذا الشيء في قصيدة طويلة له عن "الأوراس".

بيتي على الأوراس كان مباحا

يستصرخ الدنيا مساء صباحا

وتراب أرضي من دمي معشوشب

كي يشرب الغرباء منه الراحا (٣٣)

ثم يقول في القصيدة ذاتها:

فالوحش يقتل ثائرا

والأرض تنبت ألف ثائر

يا كبرياء الجرح! لومتنا

لحاربت المقابرا

فملاحم الدم في ترابك

ما لها فينا أواخر

حتى يعود القمح للفلاح

يرقص في البياد (٣٤)

ويحدد محمود درويش موقـفه تجاه هذا البعد في قصيدة أخرى اسمها "نشيد للرجال":

سنخرج مع معسكرنا
ومنفانا
سنخرج من مخابينا
ويشتمنا أعادينا:
"هلا!همج هم،عرب!"
نعم!
عرب
ولا نخجل
ونعرف كيف نمسك قبضة المنجل
وكيف يقاوم الأعزل
ونكتب أجمل الأشعار! (٣٥)

في فترة تمتد من ١٩٥٢ إلى عام ١٩٦٠، كان معظم أشعار درويش مصبوغة في لون كلاسيكي شكلا وخطابيا ونبرة ومنسجمة في ذلك مع العاصفة التي كانت تـقلع جذور المنطقة العربية، وفي نفس الوقت يتناسق مع مرحلة بدائية من مراحل نهضته ونشئته.

في نفس الفترة غنى شعراء عرب عديدون عن ثورة مصر وثورة الجزائر. وعلى رأسهم سميح القاسم، محمود درويش، توفيق زياد وغيرهم.

رأينا بشكل موجز في الأمثلة السابقة أن هناك ترابطا عظيما بين القصائد والأبعاد الاجتماعية العربية والدولية، ورأينا أيضا، كيف يعبر شعر درويش عن مسؤوليته بشكل مباشر، وكيف يخوض معركتها، وكيف يتمسك بقضايا اجتماعية وعربية ودولية"؟ (٣٦)

يتحدث قصائد محمود درويش عن ظاهرة خطيرة جاءت في أعقاب العدوان الأخير و أدت إلى العذاب الشخصي أم الجماعي و وصلت نهائيا إلى المستوى القومي عبرمرورالظاهرة العربية والدولية.

لهذه الظاهرة انعكاس ايجابي على محمود عندما كان محصورا في السجن فكتب أروع قصائده وأكثرها توهجا بالأمل والتحدي. وهي قصيدة تذكرنا برسالة أبوحنا التي بعث بها حين كان سجينا في الرملة عام ١٩٥٨، يقول محمود:

من آخر السجن طارت كف أشعاري
تشد ايديكم ريحا على نار..
أقول للمحكم الاصفاد حول يدي:
"هذي أساور أشعاري واصراري!"
في حجم مجدكم نعلي، وقيد يدي
في طول عمركم المجدول بالعار..
في اليوم أكبر عاما في هوى وطني
فعانقوني عناق الريح للنار! (٣٧)

هذه حقيقة لا تجهد أن محمود درويش كيف غنى شعره العالي بمناسبة العدوان الثلاثي، حين لاح في الأفق، لأيام قليلة، كما إنه أوقد العدوان الثلاثي في الوطن العربي آملا بالالتحام وتصفية الحساب كليا، وأوقد الأمل ذاته في الأرض المحتلة، ولجأت السخرية، بانتظار تلك اللحظة التاريخية، إلى المتراس.

وفي الذكرى التاسعة لمجزرة كفر قاسم في الأرض المحتلة شق وفد من الشباب طريقه نحو تلك القرية التي جعلها العرب في فلسطين المحتلة رمزا للمقاومة، ولكن وفد العزاء وشد الأزر فوجئ بالقرية مطوقة، فقد كان العدو يخشى أن تنقلب الذكرى، دأبها كل سنة، إلى مظاهرة. (٣٨)

شكلت مجزرة كفر قاسم نقطة تحول أساسية في الموقف المقاوم لشعراء الأرض المحتلة العرب وتأتي كشهادة دائمة على المقاومة. فنظرا إليها نظم أناشيد كاملة في ديوانه الأخير "آخر الليل" باسم قصيدة "أزهار الدم" يخاطب فيها الشهداء الخمسين الذين جزروا في تلك القرية عشية العدوان الثلاثي على مصر وفيها يتحول الشهداء الخمسون الى أوتار تعزف صمود الشاعر:

لمغنيك على الزيتون، خمسون وتر
ومغنيك اسيرا كان للريح
وعبدا للمطر..
ومغنيك الذي تاب عن النوم
تسلى بالسهر
سيسمي طلعة الورد، كما شئت: شرر!
سيسمي غابة الزيتون في عينيك
ميلاد سحر!
وسيبكي، هكذا اعتاد،
اذا مر نسيم فوق خمسين وتر
آه! يا خمسين لحنا دمويا
كيف صارت بركة الدم نجوما وشجر؟
الذي مات هو القاتل، يا قيثاتي
ومغنيك انتصر (٣٩)

ثم يقول:

كفر قاسم!
انني عدت من الموت لأحيا، لأغني
فدعيني استعر صوتي من جرح توهج
وأعينني على الحقد الذي يزرع في قلبي

إنني مندوب جرح لا يساوم
علمتني ضربة الجلاد
إن أمشي على جرحي
وأمشي، ثم أمشي، وأقاوم! (٤٠)

مثلما يغني محمود في قصيدته هذه إلى "كفر قاسم" ينشد سميح القاسم في ديوانه "دمي على كفي"

... وزهيراب من البرقوق في صدر امرأة
وعيون مطفأة
وعويل غارق في رهبة المأساة عائم
وأنا ريشة نس
في مهب الحزن والغيظ:
إله لا يساوم ! (٤١)

كتب غسان كنفاني عن شعر محمود درويش وهو يرجحه على شعر سميح القاسم يقول: بأنه "تطور مرموق ليس من حيث المضمون والقدرة الشعرية فحسب ولكن من حيث الشكل أيضا. وهو إلى جانب الشاعر سميح القاسم سيقود بالتدريج الواعي حركة الخروج عن العمود التقليدي واللحاق بالأسلوب الحديث دون أن يفقد حرارته"

وهكذا شعر محمود درويش سلاحا ذي تيارين ونراه ملتزما بالجمال والمثل معا. وهذا الأمر يجعله شاعرا مقاوما وحيدا تقريبا في قارتنا العربية الشاسعة.

• مكانته في الشعر العربي الحديث

يحتل محمود درويش مكان الصدراة في الشعر العربي الحديث من حيث الأسلوب النثري والشعري خاصة. لم يبلغ أي شاعر عربي إلى ذروة كماله من حيث كمية ونوعية الانتاج الشعري وتطور جمالياته الشعرية وخياراته الأسلوبية واللغوية والرمزية والمجازية والمضمونية والشكلية والملحمية الغنائية المتوالية.

نـــنقل أقوال الشعراء الفلسطينيين عن مكانة محمود درويش:

يعتقد منير عكش محرر القصائد المختارة بالإنجليزية عنوانها:

The Adam of Two Eden, ٢٠٠١، واحد من بين عدة نقاد حازمين انتـــقدوا نجاح درويش "المبستر" في حيفا، يقول عكش" كانت شهرته متقدمة على شعره ولكنني اكتـــشفت في ذلك الحين تململه الفني الرائع، فمع كل ديوان، يفتح مناطق جديدة" (٤٢)

يرى الناقد الأسباني خوان غويتسلو بأن درويش "أحد أفضل الشعراء العرب في القرن الحالي لأن تاريخه الشخصي يرمز إلى تاريخ قومه مشيرا إلى أن درويش استطاع تطوير هموم شعرية جميلة ومؤثرة احتلت فيها فلسطين موقعا مركزيا" (٤٣)

يعتقد ادوارد سعيد عن درويش بأنه "شاعر فلسطين القومي، وإنه أفضل شعراء العالم العربي مبيعا، وجذبت قراءته لشعره مؤخرا في إستاد بيروت ٢٥٠٠٠ شخص، أصبحت فلسطين في عمله مجازا عاما يفقد عدن، للولادة والعبث، لكرب الانخلاع والمنفيى، وهو عند الاستاذ إدوارد سعيد، أروع شاعر عربي، له حضور طاغي في فلسطين وإ سرائيل. وعند سعيد أيضا، فان شعر درويش " جهد ملحمي لتحويل قصائد الفـــقدان الغنائية إلى دراما العودة المؤجلة إلى غير محدود". (٤٤)

يضع عز الدين المناصرة درويش في الجيل الثاني في حركة الشعر الجديد بل إنه يضعه في الصف الأول من شعر المقاومة بقوله:

"أعتقد- بحياد تام- أن درويش-كشاعر مقاومة يصل إلى مستوى الصف الأول من شعراء المقاومة العالميين، من ناحية الكم الشعري على الأقل-مثل لوركا بالذات، وحكمت ونيرودا، وقد يستغرب القارئ حين ندرجه في الجيل الثاني- في مستواه العام-في الشعر العربي الحديث.. والإجابة هي أن درويش بوصفه شاعر فقط وليس شاعر مقاومة ينتمي للجيل الثاني أما كشاعر مقاومة فهو في الصف الأول من حيث قيمته في شعر المقاومة العالمي.. وهنا، فنحن نلغي السبق التاريخي وهو في صالح توفيق زياد.. أما توفيق زياد وسميح القاسم فهما من الصف الثاني من شعراء المقاومة في العالم". (٤٥)

إذا خاض الناس في أعماق بحر الشعر الدرويشي وجدوه أكثرهم تعلقا بالناس وأكثرهم تمسكا بالحداثة وأكثرهم حراسة بالأمانة للتراث الضخم الأدبي وأكثرهم وقوفا على الأسرار اللغوية فإنهم لا يجدون حرجا في الإعلان عن موقفهم إزاء قرابة شعره من الوجدان والعقل والفكر. ففي الشعر العربي الحديث إنه على صلة مستمرة بمستجدات العصر وتحولاته وله نماذج ملونة من الإبداع. وكان في صوته رنة حزن خفيفة فيمكن وصفه بقيثار النغم الحزين. (٤٦)

إن الموسيقي الفرنسي مارسيل خليفة، يحمل هوية شبيهة بأسلوب درويش الشعري بسبب توظيف الألفاظ القرآنية أمثال أحد عشركوكبا ويوسف و أخوته وكان مرطوب اللسان بذكريات ويوميات درويش شعورا بأن "شعره قد أنزل على ولي. فطعم خبز أمه كطعم خبز أمي، كذلك عينا (ريتاه) ووجع يوسف من طعنة أخوته، وجواز سفره الذي يحمل صورتي أنا وزيتون

كرمله، رمله، وعصافيره، سلاسله وجلادوه محطاته وقطاراته، رعاة بقره وهنوده... كلها كلها سكناها في أعماقي". (٤٧)

تصف الشاعرة سلمى خضراء الجيوسي بأن "درويش شاعر الهوية الفلسطينية المتميز، الهوية الشخصية والهوية الجماعية معا، لا تفترقان".

إن الهوية الفلسطينية متجذرة في الهوية الجماعية، ويتعزز الموقف الجماعي لدى الفلسطينيين بنضالهم المتكافل، كلهم في مجاله المعين، لتحرير بلادهم والحفاظ على هويتهم الخاصة." (٤٨)

وأضافت أيضا أن "هذا الشاعر هو أكبر شعراء العربية الحديثة، و أكثرهم إخلاصا، وأغناهم عطاء–لم يتحيز،ولم يحد عن الحق قط، ولم يدخل روح الشك بعدالة المحاولة الفسطينية والعربية إلى الدخول إلى العالم بشجاعة وثقة، ولم يشكك قط بالقدة الإنسانية عند شعبه وأمته جميعها على أن تؤكد هوتها من جديد، وغناها الروحي والثقافي، وقدرتها على التماسك والعطاء." (٤٩)يواجه العرب اليوم أزمة مزلزلة بشأن قضاياهم وهويتهم ومستقبلهم منذ نكبة أولى عام ١٩٤٨ يظل صوت درويش صوتا جريئا خاليا من التعصب والتزمت المترفع عن الأهواء والمصلحة.

حسب إدراكي هذا سر كبـير من أسرار بروزه كشاعر عالمي، ومن أكبر شعراء العالم.

نجد أغلب قصائد درويش زاخرة بالروحَ الشعرية والإنسانية وخاضعة لتلحين لما فيها نبرة حميمة وغنائية رفيعة منسوبة إلى أعماق النفس والروح ونجد صاحبه أبدا قادرا على التعبير عن شعرية متوهجة وإيقاعاته تظل ملكه وثروته السابغة وتحتفظ بأمتعة شعرية رغم عدوان الحياة حول الشاعر وقسوتها.

إذا قارناه بماروي عن شاعرين كبيرين يملآن ذيل العصر الأموي شعرا فنذكر ما قال ناقد قديم عنهما: الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف

من بحر. وإن عبقرية درويش الشعرية جريرية بلا شك، فهي تبدو لنا كأنها نبع يصب في بحر لاينتهي. واللهجة الدرويشية لا تموت أبدا. إنها تستمر في خلق نفسها، تظل مورقة ومتجددة.

قلما يحظى الشعراء بموقف حداثي وغزارة فنية أصيلة تحمل نكهة شعرية خاصة بالحداثة الأصيلة.

يتسم شعر محمود درويش بتوظيف ألفاظ قرآنية بمهارة و جدارة لا يؤظفها أي شاعر عربي كما يؤظفها درويش.

نظرا إلى هذه السمات البارزة يمكن القول لي أن الشاعر الكبير محمود درويش يحتل مكانة فريدة ومنزلة سامية وشعبية منقطعة النظير في أوساط الشعراء العرب عامة و الشعراء الفلسطينيـــين خاصة.

الهوامش

١. محمد دكروب: ديوان محمود درويش ١٩٧١ صفحة ص

٢. المصدر نفسه صفحة ص-ق

٣. محمود درويش : ديوانه ١٩٧١م ص ١٨٨

٤. الديوان نفسه، "عن الصمود"، أوراق الزيتون، ص ١٧٧- ١٧٨

٥. محمود درويش: ديوانه ١٩٧١ ، ص ١-٣

٦. غسان كنفاني: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨- ١٩٦٦، الفصل الثالث، نماذج من شعر المقاومة العربي، عاشق من فلسطين، ص ١١٢

٧. محمود درويش: ديوانه، "قصائد عن حب قديم"، ص ١٠٣

٨. درويش محمود: ديوانه (١٩٧١)، "قصائد عن حب قديم" ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦

٩. درويش محمود: ديوانه (١٩٧١) ،"عاشق من فلسطين" ص ٢٥٨

١٠. المصدر نفسه، ص ٣٢٦ – ٣٢٧

١١. الديوان نفسه: "موال"، آخر الليل، ص ٤٩٣

١٢. الديوان نفسه: "عن الشعر"، أوراق الزيتون، ص ١٩٨

١٣. سميح القاسم: قصيدة، ديوانه ١٩٧٣، "الصعود الثاني"، ص ٦٠٢

١٤. محمود درويش ديوانه : "عن الشعر"، أوراق الزيتون، ص ١٩٩

١٥. المرجع السابق ص ١٩٩

١٦. الديوان نفسه: "لوركا"، أوراق الزيتون، ص ٢٤٣

١٧. الديوان نفسه: "نشيد للرجال"، عاشق من فلسطين، ص ٣٤٦-٣٤٧

١٨. الديوان نفسه: قصيدة "تحد" ،عاشق من فلسطين، ص ٣٠٥ – ٣٠٦

١٩. سميح القاسم: ديوانه ١٩٧٣،"بطاقة إلى نجيب محفوظ" ص ٣٣٤ –٣٥

٢٠. محمود درويش : ديوانه ١٩٧١م ص: ٤٩٣

٢١. سميح القاسم، ديوانه ١٩٧٣، قصيدة " الفدائي"

٢٢. توفيق زياد: ديوانه، قصيدة "كلمات عن العدوان" ص ٤٤١

٢٣. المصدر السابق ص ٤٤٥

٢٤. الديوان نفسه: "أناشيد كوبية"، أوراق الزيتون، ، ص ٢١٨– ٢١٩

٢٥. سميح القاسم: قصيدة ديوانه ١٩٧٣،"بطاقات إلى ميادين المعركة"، ص ٣٣٨

٢٦. غسان كنفاني: الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨ – ١٩٦٨

٢٧. الديوان نفسه: "عن الأمنيات"، أوراق الزيتون، ص ١٨٢– ١٨٣

٢٨. سميح القاسم: قصيدة ديوانه ١٩٧٣،"إلى الأسطى سيد" ، ص ٣٤٢ –٤٣

٢٩. درويش محمود: ديوانه (١٩٧١) قصيدة أوراس" ، أوراق الزيتون، ص ٢١١

٣٠. المصدر نفسه ص ٢١٣

٣١. الديوان نفسه، "نشيد للرجال" ص ٣٣٨

٣٢. لمزيد من التفاصيل راجع "العرب في اسرائيل" بقلم المحامي صبري جريس

٣٣. الديوان نفسه، قصيدة برقية من السجن، عاشق من فلسطين، ص٢٨٥

٣٤. غسان كنفاني: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨ – ١٩٦٨ ص ٤٣

٣٥. الديوان نفسه، "ازهار الدم" ، آخر الليل، ص ٥٢٤

٣٦. المرجع السابق ص ٥٢٦

٣٧. سميح القاسم: قصيدة "ليد ظلت تقاوم" ص ٤٦٠

٣٨. الغارديان البريطانية، ٨/حزيران ٢٠٠٢

٣٩. جريدة "الغد" ١٢/كانون الأول ٢٠٠٥

٤٠. جريدة الدستور الأردنية، ٢٨ حزيران ٢٠٠٢

٤١. عز الدين المناصرة: مقدمة ديوان توفيق زياد، ص ر – ش

٤٢. http://souria.com/club/forums/٦٧٨٦٥٤

٤٣. http//al-ayyam.com/znews/site/template/Doc

٤٤. المرجع السابق

٤٥. المرجع السابق

الخاتمة

إن الحـــركات الـــثورية الظاهرة في النصف الثاني من القرن العشرين كانـــت بـــثمابة يقظة أدبية وأنجبت جيلاً أدبياً مقاوما يتضمن محمود درويش وســـميع القاســـم وتوفـــيق زياد، وتبلورت انتاجاتهم الغزيرة في غضون تلك الفـــترة. وعلى رأس الظواهر الثورية الحربان العالميتان والانتداب البريطاني وثورة عام ١٩٣٦ ونكبة ٤٨ وهزيمة حرب حزيران.

لقـــد خلقـــت ثورة ٣٦ الموجة الأولى من الموجات الأدبية الفلسطينية المعاصرة، وجاءت نكبة ٤٨ بموجة أخرى دبت على سطح الأرض الفلسطينية بخطـــوة حثيثة وشكلت جيلاً أدبيا كاملا سبقه محمود درويش وليس شعره إلا امتدادا لشعر أبي سلمى، وإبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود.

جـــاءت القصـــيدة الفلسطينية نتاجاً عن ثورة ٣٦ ومن فجيعة ٤٨ ومع ذلـــك بـــرزت أعلامهـــا من كل أبو سلمى، عبد الرحيم محمود، حنا أبو حنا وغيرهم من المعاصرين الآخرين.

شـــردت نكـــبة ٤٨ محمـــود درويـــش من وطنه وجعلته يذوق مرارة المصـــائب والآلام في لبنان حيث شهد الشاعر أياما سيئة في حياته من جراء سلســـلة من الانفجارات الجريئة والقنابل الذرية التي كانت تقصفها الطائرات الإسرائيلية على بيروت وتستهدف منشئات بيروتية. هذه العملية الفدائية شدت قوتـــه الشعرية فكتب درويش "قصيدة بيروت" و"قصيدة مديح الظل العالي" في ظلال تلك الظروف غير الملاءمة.

جســـدت هـــزيمة حرب حزيران انطلاقة شعرية جديدة وأسرعت في عجلـــة النمو الشعري الدرويشي ونشطت الحركة الثقافية بنهاية الواحد والقرن

العشرين حيث تبلورت فيه دواوينه الأخيرة أمثال "كزهر اللوز أو بعد"، سرير الغريبة" "حالة حصار"، "أحد عشر كوكبا" وقصيدة جدارية ذات قصيدة واحدة فقط.

صـــاح محمود درويش صيحة متواكبة مع جملة من التطورات العربية والفلسطينية الوطنية والفنية – التي دعته إلى تقييم شعر الأرض المحتلة بفضل تجـــربة شـــعرية جرب درويش من أجل تحرير الوطن السليب من الاحتلال الصهيوني.

فهذه حقيقة ناصعة أن هناك ترافقا عظيما بين الحركة الثورية والحركة الشعرية التي انطلقت منذ ميلاد الثورة ٦٥ وتسببت في ميلاد الشعر الفلسطيني المقاوم الحديث.

بدأت مسيرة الشعر الحديث مع أواخر العقد الرابع من القرن العشرين اســـتجابة للتغيـــيرات الاجتماعـــية الحاصلة في العالم العربي من نفس القرن وواكبت هذه المسيرة مع التطورات الاجتماعية والسياسية معا.

نظراً إلى هذا السيناريو يمكن القول لي أن محمود درويش أبرز نموذج علـــى الشعر العربي المقاوم الناتج عن الحركات الثورية في فلسطين المحتلة على مدار القرن العشرين.

على حسب مقدرتي ومعرفتي تطرقت إلى جوانب هامة من مآثر أدبية حديـــثة مرحلية لمحمود درويش وكذلك تابعت أوضاعها المتفاقمة في فلسطين وإسرائيل ولبنان وسوريا والأردن.

تعرفت على محمود درويش وشعره ومكانته عبر قصائد منشودة مفعمة بحـــب الوطن وذكرياته ويومياته وأحلامه وجرحيات عميقة أصابت بها قلوب أبـــناء وطـــنه على إثر هزيمة حرب حزيران وتأثرت بصفة خاصة بديوانيه "أوراق الزيتون" و"أحد عشر كوكبا".

إن أول الذكـــر، يستهل درويش قصيدته بـــ "سجل أنا عربي" ويخاطب

فـيها شـرطيا إسـرائيليا ويعلن بغاية من الصراحة عن هويته ورقم بطاقته "خمسـون ألـف" وشخصـه وعزمه ثباته وصلابته وصموده بالأبعاد العربية والعالمـية والمحلية وتراب أرضه ولحمه ودمه وأشجاره وأوراقه من الزيتون والـبرتقال واللـيمون والكـروم والبيارات التي تزيد في رونق شعره وبهاءه أسـلوبا، لغـة، رمـزيا ومجازا. وبسبب هذه الخصائص أنا أحبه حبا عظيما وقاسـيا. وأمـا الآخر فهو مفضل لدينا بفضل اختياراته الجمالية التي جعلتني مولعـا ومغرما لصاحبه وشدتني إلى شعره ولمست لهجته ولغته أعماق قلبي لأنهـا منحت حياة جديدة للشعر وأوقعت ايقاعا مباشرا علينا، وذكّرتني قصة (يوسـف وزلـيخا) كانـت تقصها أمي وعمتي في أيام طفولتي تحت السماء الأبيض.

لقـد شعرت لدى إعداد أطروحتي هذه بأن أعمال محمود درويش في حاجـة ماسة إلى مزيد من البحث ببساطة، وأعترف بنية خالصة بعدم كفاءتي وقدرتي على احتواء جميع جوانب أعماله، إلا أنني وجدت فيها شيء جديدا- أسـلوبا قرآنـيا فـريدا بعيدا عن متناول أيدي أقرانه بمن فيهم سميح القاسم وتوفيق زياد وسالم جبران وراشد حسين وأستاذه الجليل حنا أبو حنا وغيرهم من الشعراء العرب الآخرين.

المصادر والمراجع

الكتب العربية

- أحمد قبش: "تاريخ الشعر العربي الحديث"، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٧١
- د. أحمد أبو حاقة: "الالتزام في الشعر العربي" دار العلم للملايين- بيروت، ١٩٧٩
- سميح القاسم: ديوانه، دار العودة، بيروت لبنان، ١٩٧٣
- سميح القاسم: مقدمة ديوانه وبعض قصائده، دار العودة – بيروت، لبنان
- غسان كنفاني: *"أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٦"* مطبعة منشورات دار الآداب-بيروت
- غسان كنفاني: "أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-٦٦- منشورات دار الآداب -بيروت
- غسان كنفاني: *"الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨"*، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى، بيروت-١٩٦٨
- غسان كنفاني: "الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-٦٨"، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى -بيروت ١٩٦٨
- محمد على سرحان: "العربي الصهيوني العالمي والحلف الاستعماري"- من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ٢٠٠٢
- محمود درويش: أحد عشر كوكبا، دار العودة بيروت لبنان، ١٩٦٢
- محمود درويش: أوراق الزيتون دار العودة، بيروت لبنان، ١٩٦٤
- محمود درويش: حالة حصار، دار العودة بيروت لبنان، ٢٠٠٢
- محمود درويش: حصار لمدائح البحر، دار العودة بيروت لبنان، ١٩٩٥
- محمود درويش: ديوانه ١٩٧١، دار العودة- بيروت، لبنان
- محمود درويش: سرير الغريبة، دار العودة بيروت لبنان، ١٩٩٩
- محمود درويش: عاشق من فلسطين، دار العودة بيروت لبنان، ١٩٦٦

- محمود درويش: عصافير بلا أجنحة، دار العودة، بيروت لبنان، ١٩٦٠
- محمود درويش: قصيدة جدارية، دار العودة بيروت لبنان، ٢٠٠٠

الكتب الإنجليزية

- إدوار سعيد: مسئلة فلسطين، تائمس بكس، نيو يورك، ١٩٧٩
- ايلاد عامي بوسكيلا: فرينك كاس- لندن-بورتليند- او آر.
- ايـــم. ايـــم بدوي: "تاريخ موجز للأدب العربي الحديث" ، مطبعة كليرندن- آكسفورد ١٩٩٣
- ايم. ايم بدوي: الأدب العربي الحديث" مطبعة- جامعة كيمبرج ١٩٩٢
- ايـــه كـــيه باشا: إجراءات السلام العربي- الإسرائيلي: منظور هندي، دار الكتب والنشر، مانسن، نيو دلهي، ٢٠٠٠
- بابيه الان: تاريخ فلسطين حديثة، مطبعة جامعة كيمبرج، ٢٠٠٤
- تي. جي. فريزر: الصراع العربي-الإسرائيلي
- جولي اسكات ميزامي وبال استاركيه: موسوعة أدب العربي، ج١، الطبعة الأولى، روتليج، لندن، نيو يورك، ١٩٩٨
- زاريخ ايليا: اللاجئون الفلسطينيون والسلام، مجلة الدراسات الفلسطينية، ج١ ، ٢٤، الربيع الأول، ٣٨-٢٨
- ســـليمان أيـــه خالد: "فلسطين والشعر العربي الحديث"، دار الكتب والنشر المحدود، ٥٧، شارع كليدونين، لندن اين آئي بي- ١٩٨٤.
- عيسى جيه بولاتا (ترجمة): شعراء عرب معاصرون ١٩٥٠-١٩٧٥، لندن هينمان ١٩٧٦

الرسائل والجرائد

- "محمود درويش في حواره مع الفضائية اللبنانية"
- الأرض المحـــتلة، وقـــائع وأحداث... - آب، ١٩٨٧، العدد الثامن، جامعة الدول العربية-شارع خير الدين باشا-تونس
- جريدة "الأردنية" ،الجمعة ٢٠٠١/٨/١٠
- جريدة "الأيام" رام الله، ٢٠٠٠/٧/٤.

- جريدة الغد ٣٠ تشرين الثاني-٢٠٠٥.
- جريدة الغد، ١٢كانون الأول-٢٠٠٥
- حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" ، شؤون الأرض المحتلة، الأرض المحتلة ووقائع... و أحداث- آب ١٩٨٧، العدد الثاني والثلاثون، السنة الثالثة
- خوري، الياس، كتاب في جريدة رقم ٣٩، ٣ كانون الثاني ٢٠٠١.
- الدستور الأردنية ٢٨ حزيران ٢٠٠٢
- رصد وتحرير: محمود الظاهر،جريدة "الدستور" الأردنية، الجمعة ٢٣ أيار ١٩٩٧
- الزيودي، حبيب، جريدة الرأي الأردنية، الجمعة، ٢٠٠١/٧/٢٠
- شؤون عربية، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨١م – ذو الحجه ١٤٠١هـ
- شؤون عربية، وقائع وأحداث... – ١٩٨٧، العدد الثاني والثلاثون، السنة الثالثة
- العالمية غرة كل شهر عربي ١٤٢٨هـ الصادرة عن الهيئة ا لخيرية الإسلامية العالمية بدولة الكويت، العدد (٢٠٣) السنة التاسعة عشرة.
- العالمية، غرة كل شهر عربي، الصادرة من الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بدولة الكويت العدد ٢٠٤، ٢٤ ربيع الأول ١٤٢٨ هـ ابريل ٢٠٠٧م ، السنة التاسعة عشرة.
- الغارديان البريطانية ٨ حزيران ٢٠٠٢
- مجلة "الشعراء" العدد الثامن، ربيع ٢٠٠٠م.
- مجلة "العربي" فلسطين.. وأصوات من خلف الحصار العدد ٥٥٨ الصادرة من وزارة الإعلام بدولة الكويت، ربيع الأول ١٤٢٧هـ مايو ٢٠٠٥م.
- مجلة "الكلمة"، رام الله خريف ٢٠٠٠، العدد السادس
- مجلة "المشارف" الصادرة في حيفا في تشرين الأول من عام ١٩٩٥.

مصادر انترنت

- http://www.al-ayayam.com/znews/site/template.doc
- http://www.amazon.com
- jchat.com
- www.mahmouddarwish.com/arabicintroduction.html

المحتويات

مقدمة ١

كلمة الشكر ٣

الباب الأول: ٤

الفصل الأول: خلفية وفلسطين السياسية والاجتماعية والعلمية

الفصل الثاني: قرية البروة: تاريخها وأهميتها

الفصل الثالث: نبذة عن حياة محمود درويش

الباب الثاني: ٣٨

الفصل الأول: مساهماته في مجال النثر العربي الحديث

الفصل الثاني: مساهماته في مجال الشعر العربي الحديث

الفصل الثالث: ميزاته الشعرية

الباب الثالث: ٨٢

الفصل الأول: أعمال محمود درويش في منظور نقدي

الفصل الثاني: مقارنته مع سميح القاسم وتوفيق زياد

الفصل الثالث: مكانته في الشعر العربي الحديث

الخاتمة: ١١٥

المصادر والمراجع: ١١٨

Jawaharlal Nehru University Library

MAHMOOD DARWISH: HAYATUHU WA A'MALUHU AL ADABIYYAH

DIRASAH NAQDIYA

(Mahmood Darwish: His Life and Literary Works: A Critical Study)

Dissertation submitted to the Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment of the requirements for the award of the degree of

MASTER OF PHILOSOPHY

by

ZIAUR RAHMAN

Under the supervision of

Dr. MUJEEBUR RAHMAN

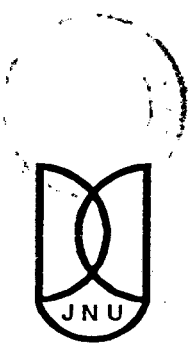

Centre of Arabic and African Studies
School of Languages, Literature & Cultural Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

2007